توحیدالمفضل ص : ۳۹

کلام ابن أبی العوجاء مع صاحبه

روی محمد بن سنان قال حدثنی المفضل بن عمر قال کنت ذات یوم بعد العصر جالسا فی الروضة بین القبر و المنبر و أنا مفکر فیما خص الله تعالی به سیدنا محمدا ص من الشرف

توحیدالمفضل ص : ۴۰

و الفضائل و ما منحه و أعطاه و شرفه و حباه مما لا یعرفه الجمهور من الأمة و ما جهلوه من فضله و عظیم منزلته و خطیر مرتبته فإنی لکذلک إذ أقبل ابن أبی العوجاء فجلس بحیث أسمع کلامه فلما استقر به المجلس إذ رجل من أصحابه قد جاء فجلس إلیه فتکلم ابن أبی العوجاء فقال لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بکماله و حاز الشرف بجمیع خصاله و نال الحظوة فی کل أحواله فقال له صاحبه إنه کان فیلسوفا ادعی المرتبة العظمی و المنزلة الکبری و أتی علی ذلک بمعجزات بهرت العقول و ضلت فیها الأحلام و غاصت الألباب علی طلب علمها

توحیدالمفضل ص : ۴۱

فی بحار الفکر فرجعت خاسئات و هی حسر فلما استجاب لدعوته العقلاء و الفصحاء و الخطباء دخل الناس فی دینه أفواجا فقرن اسمه باسم ناموسه فصار یهتف به علی رءوس الصوامع فی جمیع البلدان و المواضع التی انتهت إلیها دعوته و علتها کلمته و ظهرت فیها حجته برا و بحرا سهلا و جبلا فی کل یوم و لیلة خمس مرات مرددا فی الأذان و الإقامة لیتجدد فی کل ساعة ذکره و لئلا یخمل أمره فقال ابن أبی العوجاء دع ذکر محمد ص فقد تحیر فیه عقلی و ضل فی أمره فکری و حدثنا فی ذکر الأصل الذی نمشی له ثم ذکر ابتداء الأشیاء و زعم أن ذلک بإهمال لا صنعة فیه و لا تقدیر و لا صانع و لا مدبر بل الأشیاء تتکون من ذاتها بلا مدبر و علی هذا کانت الدنیا لم تزل و لا تزال

محاورة المفضل مع ابن أبی العوجاء

قال المفضل فلم أملک نفسی غضبا و غیظا و حنقا فقلت یا عدو الله أ لحدت فی دین الله و أنکرت الباری جل قدسه الذی خلقک فی أحسن تقویم و صورک فی أتم صورة و نقلک فی أحوالک حتی بلغ إلی حیث انتهیت فلو تفکرت فی نفسک و صدقک لطیف حسک لوجدت دلائل الربوبیة و آثار الصنعة فیک قائمة و شواهده جل و تقدس فی

خلقک

توحیدالمفضل ص : ۴۲

واضحة و براهینه لک لائحة فقال یا هذا إن کنت من أهل الکلام کلمناک فإن ثبتت لک حجة تبعناک و إن لم تکن منهم فلا کلام لک و إن کنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هکذا تخاطبنا و لا بمثل دلیلک تجادل فینا و لقد سمع من کلامنا أکثر مما سمعت فما أفحش فی خطابنا و لا تعدی فی جوابنا و إنه الحلیم الرزین العاقل الرصین لا یعتریه خرق و لا طیش و لا نزق یسمع کلامنا و یصغی إلینا و یتعرف حجتنا حتی إذا استفرغنا ما عندنا و ظننا إنا قطعناه دحض حجتنا بکلام یسیر و خطاب قصیر یلزمنا به الحجة و یقطع العذر و لا نستطیع لجوابه ردا فإن کنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه

سبب إملاء الکتاب علی المفضل

قال المفضل فخرجت من المسجد محزونا مفکرا فیما بلی به الإسلام و أهله من کفر هذه العصابة و تعطیلها فدخلت علی مولای ع فرآنی منکسرا فقال ما لک فأخبرته بما سمعت من الدهریین و بما

توحیدالمفضل ص : ۴۳

رددت علیهما فقال یا مفضل لألقین علیک من حکمة الباری جل و علا و تقدس اسمه فی خلق العالم و السباع و البهائم و الطیر و الهوام و کل ذی روح من الأنعام و النبات و الشجرة المثمرة و غیر ذات الثمر و الحبوب و البقول المأکول من ذلک و غیر المأکول ما یعتبر به المعتبرون و یسکن إلی معرفته المؤمنون و یتحیر فیه الملحدون فبکر علی غدا

توحیدالمفضل ص : ۴۴

المجلس الأول

قال المفضل فانصرفت من عنده فرحا مسرورا و طالت علی تلک اللیلة انتظارا لما وعدنی به فلما أصبحت غدوت فاستؤذن لی فدخلت و قمت بین یدیه فأمرنی بالجلوس فجلست ثم نهض إلی حجرة کان یخلو فیها و نهضت بنهوضه فقال اتبعنی فتبعته فدخل و دخلت خلفه فجلس و جلست بین یدیه فقال یا مفضل کأنی بک و قد طالت علیک هذه اللیلة انتظارا لما وعدتک فقلت أجل یا مولای فقال یا مفضل إن الله تعالی کان و لا

شیء قبله و هو باق و لا نهایة له فله الحمد علی ما ألهمنا و الشکر علی ما منحنا فقد خصنا من العلوم بأعلاها و من المعالی بأسناها و اصطفانا علی جمیع الخلق بعلمه و جعلنا مهیمنین علیهم بحکمه فقلت یا مولای أ تأذن لی أن أکتب ما تشرحه و کنت أعددت معی ما أکتب فیه فقال لی افعل یا مفضل

جهل الشکاک بأسباب الخلقة و معانیها

إن الشکاک جهلوا الأسباب و المعانی فی الخلقة و قصرت أفهامهم

توحیدالمفضل ص : ۴۵

عن تأمل الصواب و الحکمة فیما ذرأ الباری جل قدسه و برأ من صنوف خلقه فی البر و البحر و السهل و الوعر فخرجوا بقصر علومهم إلی الجحود و بضعف بصائرهم إلی التکذیب و العنود حتی أنکروا خلق الأشیاء و ادعوا أن تکونها بالإهمال لا صنعة فیها و لا تقدیر و لا حکمة من مدبر و لا صانع تعالی الله عما یصفون و قاتلهم الله أنی یؤفکون فهم فی ضلالهم و غیهم و تجبرهم بمنزلة عمیان دخلوا دارا قد بنیت أتقن بناء و أحسنه و فرشت بأحسن الفرش و أفخره و أعد فیها ضروب الأطعمة و الأشربة و الملابس و المآرب التی یحتاج إلیها و لا یستغنی عنها و وضع کل شیء من ذلک موضعه علی صواب من التقدیر و حکمة من التدبیر فجعلوا یترددون فیها یمینا و شمالا و یطوفون بیوتها إدبارا و إقبالا محجوبة أبصارهم عنها لا یبصرون بنیة الدار و ما أعد فیها و ربما عثر بعضهم بالشیء الذی قد وضع موضعه و أعد للحاجة إلیه و هو جاهل للمعنی فیه و لما أعد و لما ذا جعل کذلک فتذمر و تسخط و ذم الدار و بانیها فهذه حال هذا الصنف فی إنکارهم ما أنکروا من أمر الخلقة و ثبات الصنعة فإنهم لما عزبت أذهانهم عن معرفة الأسباب و العلل فی الأشیاء صاروا یجولون فی هذا العالم حیاری فلا یفهمون

توحیدالمفضل ص : ۴۶

ما هو علیه من إتقان خلقته و حسن صنعته و صواب هیئته و ربما وقف بعضهم علی الشیء یجهل سببه و الأرب فیه فیسرع إلی ذمه و وصفه بالإحالة و الخطإ کالذی أقدمت علیه المنانیة الکفرة و جاهرت به الملحدة المارقة الفجرة و أشباههم من أهل الضلال المعللین أنفسهم بالمحال فیحق علی من أنعم الله علیه بمعرفته و هداه لدینه و وفقه لتأمل التدبیر فی صنعة الخلائق و الوقوف علی ما خلقوا له من لطیف التدبیر و

صواب التقدير بالدلالة القائمة الدالة على صانعها أن

توحيدالمفضل ص : ۴۷

يكثر حمد الله مولاه على ذلک و يرغب إليه فى الثبات عليه و الزيادة منه فإنه جل اسمه يقول لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِى لَشَدِيدٌ

تهيئة العالم و تأليف أجزائه

يا مفضل أول العبر و الدلالة على البارى جل قدسه تهيئة هذا العالم و تأليف أجزائه و نظمها على ما هى عليه فإنک إذا تأملت العالم بفكرک و خبرته بعقلک وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده فالسماء مرفوعة كالسقف و الأرض ممدودة كالبساط و النجوم مضيئة كالمصابيح و الجواهر مخزونة كالذخائر و كل شىء فيها لشأنه معد و الإنسان كالملک ذلک البيت و المخول جميع ما فيه و ضروب النبات مهيأة لمآربه و صنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه و منافعه ففى هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير و حكمة و نظام و ملائمة و أن الخالق له واحد و هو الذى ألفه و نظمه بعضا إلى بعض جل قدسه و تعالى جده و كرم وجهه و لا إله غيره تعالى عما يقول الجاحدون و جل و عظم عما ينتحله الملحدون

توحيدالمفضل ص : ۴۸

خلق الإنسان و تدبير الجنين فى الرحم

نبدأ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به فأول ذلک ما يدبر به الجنين فى الرحم و هو محجوب فى ظلمات ثلاث ظلمة البطن و ظلمة الرحم و ظلمة المشيمة حيث لا حيلة عنده فى طلب غذاء و لا دفع أذى و لا استجلاب منفعة و لا دفع مضرة فإنه يجرى إليه من دم الحيض ما يغذوه الماء و النبات فلا يزال ذلک غذاؤه

كيفية ولادة الجنين و غذائه و طلوع أسنانه و بلوغه

حتى إذا كمل خلقه و استحكم بدنه و قوى أديمه على مباشرة الهواء و بصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق بأمه فأزعجه أشد إزعاج و أعنفه حتى يولد فإذا ولد صرف ذلک الدم الذى كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها و انقلب الطعم و اللون إلى ضرب آخر من الغذاء و هو أشد موافقة للمولود من الدم فيوافيه فى وقت حاجته إليه فحين يولد قد تلمظ و حرک شفتيه طلبا للرضاع فهو يجد ثدى أمه كالإداوتين المعلقتين لحاجته فلا يزال يتغذى باللبن ما دام رطب البدن رقيق الأمعاء لين الأعضاء

توحیدالمفضل ص : ۴۹

حتی إذا یحرک و احتاج إلی غذاء فیه صلابة لیشتد و یقوی بدنه طلعت له الطواحن من الأسنان و الأضراس لیمضغ بها الطعام فیلین علیه و یسهل له إساغته فلا یزال کذلک حتی یدرک فإذا أدرک و کان ذکرا طلع الشعر فی وجهه فکان ذلک علامة الذکر و عز الرجل الذی یخرج به من جد الصبا و شبه النساء و إن کانت أنثی یبقی وجهها نقیا من الشعر لتبقی لها البهجة و النضارة التی تحرک الرجل لما فیه دوام النسل و بقاؤه

اعتبر یا مفضل فیما یدبر به الإنسان فی هذه الأحوال المختلفة هل تری مثله یمکن أن یکون بالإهمال أ فرأیت لو لم یجر إلیه ذلک الدم و هو فی الرحم أ لم یکن سیذوی و یجف کما یجف النبات إذا فقد الماء و لو لم یزعجه المخاض عند استحکامه أ لم یکن سیبقی فی الرحم کالموءود فی الأرض و لو لم یوافقه اللبن مع ولادته أ لم یکن سیموت جوعا أو یغتذی بغذاء لا یلائمه و لا یصلح علیه بدنه و لو لم تطلع له الأسنان فی وقتها أ لم یکن سیمتنع علیه مضغ الطعام و إساغته أو یقیمه علی الرضاع فلا یشتد بدنه و لا یصلح لعمل ثم کان یشغل أمه بنفسه عن تربیة غیره من الأولاد

توحیدالمفضل ص : ۵۰

حال من لا ینبت فی وجهه الشعر و علة ذلک

و لو لم یخرج الشعر فی وجهه فی وقته أ لم یکن سیبقی فی هیئة الصبیان و النساء فلا تری له جلالة و لا وقارا قال المفضل فقلت له یا مولای فقد رأیت من یبقی علی حالته و لا ینبت الشعر فی وجهه و إن بلغ الکبر فقال ع ذلِکَ بِما قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَیْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیدِ فمن هذا الذی یرصده حتی یوافیه بکل شیء من هذه المآرب إلا الذی أنشأه خلقا بعد أن لم یکن ثم توکل له بمصلحته بعد أن کان فإن کان الإهمال یأتی بمثل هذا التدبیر فقد یجب أن یکون العمد و التقدیر یأتیان بالخطإ و المحال لأنهما ضد الإهمال و هذا فظیع من القول و جهل من قائله لأن الإهمال لا یأتی بالصواب و التضاد لا یأتی بالنظام تعالی الله عما یقول الملحدون علوا کبیرا

توحیدالمفضل ص : ۵۱

حال المولود لو ولد فهما عاقلا و تعلیل ذلک

و لو کان المولود یولد فهما عاقلا لأنکر العالم عند ولادته و لبقی حیران تائه العقل إذا رأی ما لم یعرف و ورد علیه ما لم یر مثله من اختلاف صور العالم من البهائم و الطیر

إلى غير ذلک مما يشاهده ساعة بعد ساعة و يوما بعد يوم و اعتبر ذلک بأن من سبى من بلد و هو عاقل يكون كالواله الحيران فلا يسرع إلى تعلم الكلام و قبول الأدب كما يسرع الذى سبى صغيرا غير عاقل ثم لو ولد عاقلا كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولا مرضعا معصبا بالخرق مسجى فى المهد لأنه لا يستغنى عن هذا كله لرقة بدنه و رطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد له من الحلاوة و الوقع من القلوب ما يوجد للطفل فصار يخرج إلى الدنيا غبيا غافلا عما فيه أهله فيلقى الأشياء بذهن ضعيف و معرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فى المعرفة قليلا

توحيدالمفضل ص : ۵۲

قليلا و شيئا بعد شىء و حالا بعد حال حتى يألف الأشياء و يتمرن و يستمر عليها فيخرج من حد التأمل لها و الحيرة فيها إلى التصرف و الاضطرار إلى المعاش بعقله و حيلته و إلى الاعتبار و الطاعة و السهو و الغفلة و المعصية و فى هذا أيضا وجوه أخر فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد و ما قدر أن يكون للوالدين فى الاشتغال بالولد من المصلحة و ما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبر و العطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلک منهم ثم كان الأولاد لا يألفون آباءهم و لا يألف الآباء أبناءهم لأن الأولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء و حياطتهم فيتفرقون عنهم حين يولدون فلا يعرف الرجل أباه و أمه و لا يمتنع من نكاح أمه و أخته و ذوات المحارم منه إذا كان لا يعرفهن و أقل ما فى ذلک من القباحة بل هو أشنع و أعظم و أفظع و أقبح و أبشع لو خرج المولود من بطن أمه و هو يعقل أن يرى منها ما لا يحل له و لا يحسن به أن يراه أ فلا ترى كيف أقيم كل شىء من الخلقة على غاية الصواب و خلا من الخطإ دقيقه و جليله

توحيدالمفضل ص : ۵۳

منفعة الأطفال فى البكاء

اعرف يا مفضل ما للأطفال فى البكاء من المنفعة و اعلم أن فى أدمغة الأطفال رطوبة إن بقيت فيها أحدثت عليهم أحداثا جليلة و عللا عظيمة من ذهاب البصر و غيره و البكاء يسيل تلک الرطوبة من رءوسهم فيعقبهم ذلک الصحة فى أبدانهم و السلامة فى أبصارهم أ فليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء و والداه لا يعرفان ذلک فهما دائبان ليسكتانه و يتوخيان فى الأمور مرضاته لئلا يبكى و هما لا يعلمان أن

البكاء أصلح له و أجمل عاقبة فهكذا يجوز أن يكون فى كثير من الأشياء منافع لا يعرفها القائلون بالإهمال و لو عرفوا ذلک لم يقضوا على الشىء أنه لا منفعة فيه من أجل أنهم لا يعرفونه و لا يعلمون السبب فيه فإن كل ما لا يعرفه المنكرون يعلمه العارفون و كثيرا ما يقصر عنه علم المخلوقين محيط به علم الخالق جل قدسه و علت كلمته فأما ما يسيل من أفواه الأطفال من الريق ففى ذلک خروج الرطوبة التى لو بقيت فى أبدانهم لأحدثت عليهم الأمور العظيمة كمن تراه قد غلبت عليه الرطوبة فأخرجته إلى حد البله و الجنون و التخليط إلى غير ذلک من الأمراض المتلفة كالفالج

توحيدالمفضل ص : ۵۴

و اللقوة و ما أشبههما فجعل الله تلک الرطوبة تسيل من أفواههم فى صغرهم لما لهم فى ذلک من الصحة فى كبرهم فتفضل على خلقه بما جهلوه و نظر لهم بما لم يعرفوه و لو عرفوا نعمه عليهم لشغلهم ذلک من التمادى فى معصيته فسبحانه ما أجل نعمته و أسبغها على المستحقين و غيرهم من خلقه تعالى عما يقول المبطلون علوا كبيرا

آلات الجماع و هيئتها

انظر الآن يا مفضل كيف جعلت آلات الجماع فى الذكر و الأنثى جميعا على ما يشاكل ذلک عليه فجعل للذكر آلة ناشرة تمتد حتى تصل النطفة إلى الرحم إذا كان محتاجا إلى أن يقذف ماءه فى غيره و خلق للأنثى وعاء قعرا ليشتمل على الماءين جميعا و يحتمل الولد و يتسع له و يصونه حتى يستحكم أ ليس ذلک من تدبير حكيم لطيف سبحانه و تعالى عما يشركون

أعضاء البدن و فوائد كل منها

فكر يا مفضل فى أعضاء البدن أجمع و تدبير كل منها للأرب

توحيدالمفضل ص : ۵۵

فاليدان للعلاج و الرجلان للسعى و العينان للاهتداء و الفم للاغتذاء و المعدة للهضم و الكبد للتخليص و المنافذ لتنفيذ الفضول و الأوعية لحملها و الفرج لإقامة النسل و كذلک جميع الأعضاء إذا ما تأملتها و أعملت فكرک فيها و نظرک وجدت كل شىء منها قد قدر لشىء على صواب و حكمة

زعم الطبيعيين و جوابه

قال المفضل فقلت يا مولاى إن قوما يزعمون أن هذا من فعل الطبيعة فقال ع سلهم

عن هذه الطبيعة أ هى شيء له علم و قدرة على مثل هذه الأفعال أم ليست كذلک فإن أوجبوا لها العلم و القدرة فما يمنعهم من إثبات الخالق فإن هذه صنعته و إن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم و لا عمد و كان فى أفعالها ما قد تراه من الصواب و الحكمة علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم فإن الذى سموه طبيعة هو سنته فى خلقه الجارية على ما أجراها عليه

توحيدالمفضل ص : ۵۶

عملية الهضم و تكون الدم و جريانه فى الشرايين و الأوردة

فكر يا مفضل فى وصول الغذاء إلى البدن و ما فيه من التدبير فإن الطعام يصير إلى المعدة فتطبخه و تبعث بصفوه إلى الكبد فى عروق دقاق واشجة بينهما قد جعلت كالمصفى للغذاء لكيلا يصل إلى الكبد منه شيء فينكاها و ذلک أن الكبد رقيقة لا تحتمل العنف ثم إن الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دما و ينفذه إلى البدن كله فى مجارى مهيئة لذلک بمنزلة المجارى التى تهيأ للماء ليطرد فى الأرض كلها و ينفذ ما يخرج منه من الخبث و الفضول إلى مفايض قد أعدت لذلک

توحيدالمفضل ص : ۵۷

فما كان منه من جنس المرة الصفراء جرى إلى المرارة و ما كان من جنس السوداء جرى إلى الطحال و ما كان من البلة و الرطوبة جرى إلى المثانة فتأمل حكمة التدبير فى تركيب البدن و وضع هذه الأعضاء منه مواضعها و أعداد هذه الأوعية فيه لتحمل تلک الفضول لئلا تنتشر فى البدن فتسقمه و تنهكه فتبارک من أحسن التقدير و أحكم التدبير و له الحمد كما هو أهله و مستحقه

أول نشوء الأبدان تصوير الجنين فى الرحم

قال المفضل فقلت صف نشوء الأبدان و نموها حالا بعد حال حتى تبلغ التمام و الكمال قال ع أول ذلک تصوير الجنين فى

توحيدالمفضل ص : ۵۸

الرحم حيث لا تراه عين و لا تناله يد و يدبره حتى يخرج سويا مستوفيا جميع ما فيه قوامه و صلاحه من الأحشاء و الجوارح و العوامل إلى ما فى تركيب أعضائه من العظام و اللحم و الشحم و العصب و المخ و العروق و الغضاريف فإذا خرج إلى العالم تراه كيف ينمو بجميع أعضائه و هو ثابت على شكل و هيئة لا تتزايد و لا تنقص إلى أن يبلغ

أشده إن مد فی عمره أو یستوفی مدته قبل ذلک هل هذا إلا من لطیف التدبیر و الحکمة

اختصاص الإنسان بالانتصاب و الجلوس دون البهائم

انظر یا مفضل ما خص به الإنسان فی خلقه تشرفا و تفضلا علی البهائم فإنه خلق ینتصب قائما و یستوی جالسا لیستقبل الأشیاء بیدیه و جوارحه و یمکنه العلاج و العمل بهما فلو کان مکبوبا علی وجهه کذوات الأربع لما استطاع أن یعمل شیئا من الأعمال

تخصص الإنسان بالحواس و تشرفه بها دون غیره

انظر الآن یا مفضل إلی هذه الحواس التی خص بها الإنسان فی خلقه و شرف بها علی غیره کیف جعلت العینان فی الرأس کالمصابیح فوق المنارة لیتمکن من مطالعة الأشیاء و لم تجعل فی الأعضاء

توحیدالمفضل ص : ۵۹

التی تحتهن کالیدین و الرجلین فتعترضها الآفات و یصیبها من مباشرة العمل و الحرکة ما یعللها و یؤثر فیها و ینقص منها و لا فی الأعضاء التی وسط البدن کالبطن و الظهر فیعسر تقلبها و اطلاعها نحو الأشیاء

الحواس الخمس و أعمالها و ما فی ذلک من الأسرار

فلما لم یکن لها فی شیء من هذه الأعضاء موضع کان الرأس أسنی المواضع للحواس و هو بمنزلة الصومعة لها فجعل الحواس خمسا تلقی خمسا لکی لا یفوتها شیء من المحسوسات فخلق البصر لیدرک الألوان فلو کانت الألوان و لم یکن بصر یدرکها لم تکن فیها منفعة و خلق السمع لیدرک الأصوات فلو کانت الأصوات و لم یکن سمع یدرکها لم یکن فیها أرب و کذلک سائر الحواس ثم هذا یرجع متکافیا فلو کان بصر و لم تکن الألوان لما کان للبصر معنی و لو کان سمع و لم تکن أصوات لم یکن للسمع موضع

تقدیر الحواس بعضها یلقی بعضا

فانظر کیف قدر بعضها یلقی بعضا فجعل لکل حاسة محسوسا یعمل فیه و لکل محسوس حاسة تدرکه و مع هذا فقد جعلت

توحیدالمفضل ص : ۶۰

أشیاء متوسطة بین الحواس و المحسوسات لا تتم الحواس إلا بها کمثل الضیاء و

الهواء فإنه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر لم يكن البصر يدرک اللون و لو لم يكن هواء يؤدى الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرک الصوت فهل يخفى على من صح نظره و أعمل فكره إن مثل هذا الذى وصفت من تهيئة الحواس و المحسوسات بعضها يلقى بعضا و تهيئة أشياء أخر بها تتم الحواس لا يكون إلا بعمل و تقدير من لطيف خبير

فيمن عدم البصر و السمع و العقل و ما فى ذلک من الموعظة

فكر يا مفضل فيمن عدم البصر من الناس و ما يناله من الخلل فى أموره فإنه لا يعرف موضع قدميه و لا يبصر ما بين يديه فلا يفرق بين الألوان و بين المنظر الحسن و القبيح و لا يرى حفرة إن هجم عليها و لا عدوا إن أهوى إليه بسيف و لا يكون له سبيل إلى أن يعمل شيئا من هذه الصناعات مثل الكتابة و التجارة و الصياغة حتى أنه لو لا نفاذ ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقى و كذلک من عدم السمع يختل فى أمور كثيرة فإنه يفقد روح المخاطبة و المحاورة و يعدم لذة الأصوات و اللحون المشجية و المطربة و تعظم المئونة على الناس فى محاورته حتى يتبرموا به و لا يسمع شيئا من أخبار الناس و أحاديثهم حتى يكون كالغائب و هو شاهد أو كالميت

توحيدالمفضل ص : ۶۱

و هو حى فأما من عدم العقل فإنه يلحق بمنزلة البهائم بل يجهل كثيرا مما تهتدى إليه البهائم أ فلا ترى كيف صارت الجوارح و العقل و سائر الخلال التى بها صلاح الإنسان و التى لو فقد منها شيئا لعظم ما يناله فى ذلک من الخلل يوافى خلقه على التمام حتى لا يفقد شيئا منها فلم كان كذلک إلا أنه خلق بعلم و تقدير قال المفضل فقلت فلم صار بعض الناس يفقد شيئا من هذه الجوارح فيناله من ذلک مثل ما وصفته يا مولاى قال ع ذلک للتأديب و الموعظة لمن يحل ذلک به و لغيره بسببه كما يؤدب الملوک الناس للتنكيل و الموعظة فلا ينكر ذلک عليهم بل يحمد من رأيهم و يتصوب من تدبيرهم ثم إن للذين تنزل بهم هذه البلايا من الثواب بعد الموت إن شكروا و أنابوا ما يستصغرون معه ما ينالهم منها حتى أنهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا أن يردوا إلى البلايا ليزدادوا من الثواب

الأعضاء المخلوقة أفرادا و أزواجا و كيفية ذلک

فكر يا مفضل فى الأعضاء التى خلقت أفرادا و أزواجا و ما فى ذلک من الحكمة و التقدير

و الصواب فى التدبير فالرأس مما خلق فردا و لم يكن للإنسان صلاح فى أن يكون له

توحيدالمفضل ص : ۶۲

أكثر من واحد أ لا ترى أنه لو أضيف إلى رأس الإنسان رأس آخر لكان ثقلا عليه من غير حاجة إليه لأن الحواس التى يحتاج إليها مجتمعة فى رأس واحد ثم كان الإنسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان فإن تكلم من أحدهما كان الآخر معطلا لا أرب فيه و لا حاجة إليه و إن تكلم منهما جميعا بكلام واحد كان أحدهما فضلا لا يحتاج إليه و إن تكلم بأحدهما بغير الذى تكلم به من الآخر لم يدر السامع بأى ذلک يأخذ و أشباه هذا من الأخلاط و اليدان مما خلق أزواجا و لم يكن للإنسان خير فى أن يكون له يد واحدة لأن ذلک كان يخل به فيما يحتاج إلى معالجته من الأشياء أ لا ترى أن النجار و البناء لو شلت إحدى يديه لا يستطيع أن يعالج صناعته و إن تكلف ذلک لم يحكمه و لم يبلغ منه ما يبلغه إذا كانت يداه تتعاونان على العمل

الصوت و الكلام و تهيئة آلاته فى الإنسان و عمل كل منها

أطل الفكر يا مفضل فى الصوت و الكلام و تهيئة آلاته فى الإنسان فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت و اللسان و الشفتان و الأسنان لصياغة الحروف و النغم أ لا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم السين و من سقطت شفته لم يصحح الفاء و من ثقل لسانه لم يفصح الراء و أشبه

توحيدالمفضل ص : ۶۳

شىء بذلک المزمار الأعظم فالحنجرة تشبه قصبة المزمار و الرئة تشبه الزق الذى ينفخ فيه لتدخل الريح و العضلات التى تقبض على الرئة ليخرج الصوت كالأصابع التى تقبض على الزق حتى تجرى الريح فى المزامير و الشفتان و الأسنان التى تصوغ الصوت حروفا و نغما كالأصابع التى تختلف فى فم المزمار فتصوغ صفيره ألحانا غير أنه و إن كان مخرج الصوت يشبه المزمار بالآلة و التعريف فإن المزمار فى الحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت

ما فى الأعضاء من المآرب الأخرى

قد أنبأتک بما فى الأعضاء من الغناء فى صنعة الكلام و إقامة الحروف و فيها مع الذى ذكرت لک مآرب أخرى فالحنجرة ليسلک فيها هذا النسيم إلى الرئة فتروح على الفؤاد بالنفس الدائم المتتابع الذى لو حبس شيئا يسيرا لهلک الإنسان و باللسان تذاق

الطعوم فيميز بينها و يعرف كل واحد منها حلوها من مرها و حامضها من مرها و مالحها من عذبها و طيبها من خبيثها و فيه مع ذلک معونة على إساغة الطعام و الشراب و الأسنان لمضغ الطعام حتى يلين و تسهل إساغته و هى مع ذلک كالسند للشفتين تمسكهما و تدعمهما من داخل الفم و اعتبر ذلک فإنک ترى من سقطت أسنانه مسترخى الشفة و مضطربها و بالشفتين يترشف الشراب حتى

توحيدالمفضل ص : ۶۴

يكون الذى يصل إلى الجوف منه بقصد و قدر لا يثج ثجا فيغص به الشارب أو ينكى فى الجوف ثم همى بعد ذلک كالباب المطبق على الفم يفتحها الإنسان إذا شاء و يطبقها إذا شاء و فيما وصفنا من هذا بيان أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف و ينقسم إلى وجوه من المنافع كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى و ذلک كالفأس تستعمل فى النجارة و الحفر و غيرهما من الأعمال

الدماغ و أغشيته و الجمجمة و فائدتها

و لو رأيت الدماغ إذا كشف عنه لرأيته قد لف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الأعراض و تمسكه فلا يضطرب و لرأيت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة كيما تقيه هد الصدمة و الصكة التى ربما وقعت فى الرأس ثم قد جللت الجمجمة بالشعر حتى صارت بمنزلة الفرو للرأس يستره من شدة الحر و البرد فمن حصن الدماغ هذا التحصين إلا الذى خلقه و جعله ينبوع الحس و المستحق للحيطة و الصيانة بعلو منزلته من البدن و ارتفاع درجته و خطير مرتبته

توحيدالمفضل ص : ۶۵

الجفن و أشفاره

تأمل يا مفضل الجفن على العين كيف جعل كالغشاء و الأشفار كالأشراح و أولجها فى هذا الغار و أظلها بالحجاب و ما عليه من الشعر

الفؤاد و مدرعته

يا مفضل من غيب الفؤاد فى جوف الصدر و كساه المدرعة التى غشاؤه و حصنه بالجوانح و ما عليها من اللحم و العصب لئلا يصل إليه ما ينكيه

الحلق و المرىء

من جعل فى الحلق منفذين أحدهما لمخرج الصوت و هو الحلقوم

توحیدالمفضل ص : ۶۶

المتصل بالرئة و الآخر منفذا للغذاء و هو المرىء المتصل بالمعدة الموصل الغذاء إليها و جعل على الحلقوم طبقا يمنع الطعام أن يصل إلى الرئة فيقتل

الرئة و عملها أشراج منافذ البول و الغائط

من جعل الرئة مروحة الفؤاد لا تفتر و لا تختل لكيلا تتحير الحرارة فى الفؤاد فتؤدى إلى التلف من جعل لمنافذ البول و الغائط أشراجا تضبطهما لئلا يجريا جريانا دائما فيفسد على الإنسان عيشه فكم عسى أن يحصى المحصى من هذا بل الذى لا يحصى منه و لا يعلمه الناس أكثر

المعدة عصبانية و الكبد

من جعل المعدة عصبانية شديدة و قدرها لهضم الطعام الغليظ و من جعل الكبد رقيقة ناعمة لقبول الصفو اللطيف من الغذاء و لتهضم

توحیدالمفضل ص : ۶۷

و تعمل ما هو ألطف من عمل المعدة إلا الله القادر أ ترى الإهمال يأتى بشىء من ذلک كلا بل هو تدبير مدبر حكيم قادر عليم بالأشياء قبل خلقه إياها لا يعجزه شىء و هو اللطيف الخبير

المخ و الدم و الأظفار و الأذن و لحم الأليتين و الفخذين

فكر يا مفضل لم صار المخ الرقيق محصنا فى أنابيب العظام هل ذلک إلا ليحفظه و يصونه لم صار الدم السائل محصورا فى العروق بمنزلة الماء فى الظروف إلا لتضبطه فلا يفيض لم صارت الأظفار على أطراف الأصابع إلا وقاية لها و معونة على العمل لم صار داخل الأذن ملتويا كهيأه اللولب إلا ليطرد فيه الصوت حتى ينتهى إلى السمع و ليكسر حمة الريح فلا ينكى فى السمع لم حمل الإنسان على فخذيه و أليتيه هذا اللحم إلا ليقيه من الأرض فلا يتألم من الجلوس عليها كما يألم من نحل جسمه و قل لحمه إذا لم يكن بينه و بين الأرض حائل يقيه صلابتها

الإنسان ذكر و أنثى و تناسله و آلات العمل و حاجته و حيلته و إلزامه بالحجة

من جعل الإنسان ذكرا و أنثى إلا من خلقه متناسلا و من خلقه

توحیدالمفضل ص : ۶۸

متناسلا إلا من خلقه مؤملا و من أعطاه آلات العمل إلا من خلقه عاملا و من خلقه عاملا

إلا من جعله محتاجا و من جعله محتاجا إلا من ضربه بالحاجة و من ضربه بالحاجة إلا من توكل بتقويمه و من خصه بالفهم إلا من أوجب الجزاء و من وهب له الحيلة إلا من ملكه الحول و من ملكه الحول إلا من ألزمه الحجة من يكفيه ما لا تبلغه حيلته إلا من لم يبلغ مدى شكره فكر و تدبر ما وصفته هل تجد الإهمال يأتى على مثل هذا النظام و الترتيب تبارک الله تعالى عما يصفون

الفؤاد و ثقبه المتصلة بالرئة

أصف لک الآن يا مفضل الفؤاد اعلم أن فيه ثقبا موجهة نحو الثقب التى فى الرئة تروح عن الفؤاد حتى لو اختلفت تلک الثقب و تزايل بعضها عن بعض لما وصل الروح إلى الفؤاد و لهلک الإنسان أ فيستجيز ذو فكرة و روية أن يزعم أن مثل هذا يكون بالإهمال و لا يجد شاهدا من نفسه يزعه عن هذا القول لو رأيت فردا من مصراعين فيه

توحيدالمفضل ص : ۶۹

كلوب أ كنت تتوهم أنه جعل كذلک بلا معنى بل كنت تعلم ضرورة أنه مصنوع يلقى فردا آخر فيبرزه ليكون فى اجتماعهما ضرب من المصلحة و هكذا تجد الذكر من الحيوان كأنه فرد من زوج مهيأ من فرد أنثى فيلتقيان لما فيه من دوام النسل و بقائه فتبا و خيبة و تعسا لمنتحلى الفلسفة كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى أنكروا التدبير و العمد فيها

فرج الرجل و الحكمة فيه

لو كان فرج الرجل مسترخيا كيف كان يصل إلى قعر الرحم حتى يفرغ النطفة فيه و لو كان منعضا أبدا كيف كان الرجل يتقلب فى الفراش أو يمشى بين الناس و شىء شاخص أمامه ثم يكون فى ذلک مع قبح المنظر تحريک الشهوة فى كل وقت من الرجال و النساء جميعا فقدر الله جل اسمه أن يكون أكثر ذلک لا يبدو للبصر فى كل وقت و لا يكون على الرجال منه مؤنة بل جعل فيه قوة الانتصاب وقت الحاجة إلى ذلک لما قدر أن يكون فيه من دوام النسل و بقائه

توحيدالمفضل ص : ۷۰

منفذ الغائط و وصفه

اعتبر الآن يا مفضل بعظم النعمة على الإنسان فى مطعمه و مشربه و تسهيل خروج الأذى أ ليس من حسن التقدير فى بناء الدار أن يكون الخلاء فى أستر موضع منها فكذا

جعل الله سبحانه المنفذ المهيأ للخلاء من الإنسان فى أستر موضع منه فلم يجعله بارزا من خلفه و لا ناشزا من بين يديه بل هو مغيب فى موضع غامض من البدن مستور محجوب يلتقى عليه الفخذان و تحجبه الأليتان بما عليهما من اللحم فتواريانه فإذا احتاج الإنسان إلى الخلاء و جلس تلك الجلسة ألفى ذلک المنفذ منه منصبا مهيأ لانحدار الثفل فتبارک من تظاهرت آلاؤه و لا تحصى نعماؤه

الطواحن من أسنان الإنسان

فكر يا مفضل فى هذه الطواحن التى جعلت للإنسان فبعضها حداد لقطع الطعام و قرضه و بعضها عراض لمضغه و رضه فلم ينقص واحد من الصفتين إذ كان محتاجا إليهما جميعا

توحيدالمفضل ص : ٧١

الشعر و الأظفار و فائدة قصهما

تأمل و اعتبر بحسن التدبير فى خلق الشعر و الأظفار فإنهما لما كانا مما يطول و يكثر حتى يحتاج إلى تخفيفه أولا فأولا جعلا عديما الحس لئلا يؤلم الإنسان الأخذ منهما و لو كان قص الشعر و تقليم الأظفار مما يوجد له ألم وقع من ذلک بين مكروهين إما أن يدع كل واحد منهما حتى يطول فيثقل عليه و إما أن يخففه بوجع و ألم يتألم منه قال المفضل فقلت فلم لم يجعل ذلک خلقة لا تزيد فيحتاج الإنسان إلى النقصان منه فقال ع إن لله تبارک اسمه فى ذلک على العبد نعما لا يعرفها فيحمده عليها اعلم أن آلام البدن و أدواءه تخرج بخروج الشعر فى مسامه و بخروج الأظفار من أناملها و لذلک أمر الإنسان بالنورة و حلق الرأس و قص الأظفار فى كل أسبوع ليسرع الشعر و الأظفار فى النبات فتخرج الآلام و الأدواء بخروجهما و إذا طالا تحيرا و قل خروجهما فاحتبست الآلام و الأدواء فى البدن

توحيدالمفضل ص : ٧٢

فأحدثت عللا و أوجاعا و منع مع ذلک الشعر من المواضع التى تضر بالإنسان و تحدث عليه الفساد و الضر لو نبت الشعر فى العين أ لم يكن سيعمى البصر و لو نبت فى الفم أ لم يكن سينغص على الإنسان طعامه و شرابه و لو نبت فى باطن الكف أ لم يكن سيعوقه عن صحة اللمس و بعض الأعمال و لو نبت فى فرج المرأة و على ذكر الرجل أ لم يكن سيفسد عليهما لذة الجماع فانظر كيف تنكب الشعر عن هذه المواضع لما فى

ذلک من المصلحة ثم لیس هذا فی الإنسان فقط بل تجده فی البهائم و السباع و سائر المتناسلات فإنک ترى أجسامها مجللة بالشعر و ترى هذه المواضع خالیة منه لهذا السبب بعینه فتأمل الخلقة کیف تتحرز وجوه الخطإ و المضرة و تأتی بالصواب و المنفعة

شعر الرکب و الإبطین

إن المنانیة و أشباههم حین أجهدوا فی عیب الخلقة و العمد عابوا الشعر النابت على الرکب و الإبطین و لم یعلموا أن ذلک من رطوبة تنصب إلى هذه المواضع فینبت فیها الشعر کما ینبت العشب فی مستنفع المیاه أ فلا ترى إلى هذه المواضع أستر و أهیأ لقبول تلک الفضلة من غیرها

توحیدالمفضل ص : ۷۳

ثم إن هذه تعد مما یحمل الإنسان من مؤنة هذا البدن و تکالیفه لما له فی ذلک من المصلحة فإن اهتمامه بتنظیف بدنه و أخذ ما یعلوه من الشعر مما یکسر به شرته و یکف عادیته و یشغله عن بعض ما یخرجه إلیه الفراغ من الأشر و البطالة

الریق و ما فیه من المنفعة

تأمل الریق و ما فیه من المنفعة فإنه جعل یجری جریانا دائما إلى الفم لیبل الحلق و اللهوات فلا یجف فإن هذه المواضع لو جعلت کذلک کان فیه هلاک الأسنان ثم کان لا یستطیع أن یسیغ طعاما إذا لم یکن فی الفم بلة تنفذه تشهد بذلک المشاهدة و اعلم أن الرطوبة مطیة الغذاء و قد تجری من هذه البله إلى مواضع أخر من المرة فیکون فی ذلک صلاح تام للإنسان و لو یبست المرة لهلک الإنسان

محاذیر کون بطن الإنسان کهیئة القباء

و لقد قال قوم من جهلة المتکلمین و ضعفة المتفلسفین بقلة التمییز

توحیدالمفضل ص : ۷۴

و قصور العلم لو کان بطن الإنسان کهیئة القباء یفتحه الطبیب إذا شاء فیعاین ما فیه و یدخل یده فیعالج ما أراد علاجه أ لم یکن أصلح من أن یکون مصمتا محجوبا عن البصر و الید لا یعرف ما فیه إلا بدلالات غامضة کمثل النظر إلى البول و جس العرق و ما أشبه ذلک مما یکثر فیه الغلط و الشبهة حتى ربما کان ذلک سببا للموت فلو علم هؤلاء الجهلة أن هذا لو کان هکذا کان أول ما فیه أن کان یسقط عن الإنسان الوجل

من الأمراض و الموت و كان يستشعر البقاء و يغتر بالسلامة فيخرجه ذلک إلى العتو و الأشر ثم كانت الرطوبات التى فى البطن تترشح و تتحلب فيفسد على الإنسان مقعده و مرقده و ثياب بدلته و زينته بل كان يفسد عليه عيشه ثم إن المعدة و الكبد و الفؤاد إنما تفعل أفعالها بالحرارة الغريزية التى جعلها الله محتبسة فى الجوف فلو كان فى البطن فرج ينفتح حتى يصل البصر إلى رؤيته و اليد إلى علاجه لوصل برد الهواء إلى الجوف فمازج الحرارة الغريزية و بطل عمل الأحشاء فكان فى ذلک هلاک الإنسان أ فلا ترى أن كلما تذهب إليه الأوهام سوى ما جاءت

به الخلقة خطأ و خطل

أفعال الإنسان فى الطعم و النوم و الجماع و شرح ذلک

فكر يا مفضل فى الأفعال التى جعلت فى الإنسان من الطعم و النوم و الجماع و ما دبر فيها فإنه جعل لكل واحد منها فى الطباع نفسه محرک يقتضيه و يستحث به فالجوع يقتضى الطعم الذى فيه راحة البدن و قوامه و الكرى يقتضى النوم الذى فيه راحة البدن و إجمام قواه و الشبق يقتضى الجماع الذى فيه دوام النسل و بقاؤه و لو كان الإنسان إنما يصير إلى أكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه إليه و لم يجد من طباعه شيئا يضطره إلى ذلک كان خليقا أن يتوانى عنه أحيانا بالثقل و الكسل حتى ينحل بدنه فيهلک كما يحتاج الواحد إلى الدواء لشىء مما يصلح به بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلک إلى المرض و الموت و كذلک لو كان إنما يصير إلى النوم بالفكر فى حاجته إلى راحة البدن و إجمام قواه كان عسى أن يتثاقل عن ذلک فيدفعه حتى ينهک بدنه و لو كان إنما يتحرک للجماع بالرغبة فى الولد كان غير بعيد أن يفتر عنه حتى يقل النسل أو ينقطع فإن من الناس من لا يرغب فى الولد و لا يحفل به

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التى بها قوام الإنسان و صلاحه محركا من نفس الطبع يحركه لذلک و يحدوه عليه و اعلم أن فى الإنسان قوى أربعا قوة جاذبة تقبل الغذاء و تورده على المعدة و قوة ماسكة تحبس الطعام حتى تفعل فيه الطبيعة فعلها و قوة هاضمة و هى التى تطبخه و تستخرج صفوه و تبثه فى البدن و قوة دافعة تدفعه و تحدر الثفل الفاضل بعد أخذ الهاضمة حاجتها ففكر فى تقدير هذه القوى الأربع

التی فی البدن و أفعالها و تقدیرها للحاجة إلیها و الأرب فیها و ما فی ذلک من التدبیر و الحکمة فلو لا الجاذبة کیف کان یتحرک الإنسان لطلب الغذاء الذی به قوام البدن و لو لا الماسکة کیف کان یلبث الطعام فی الجوف حتی تهضمه المعدة و لو لا الهاضمة کیف کان ینطبخ حتی یخلص منه الصفو الذی یغذو البدن و یسد خلله و لو لا الدافعة کیف کان الثفل الذی تخلفه الهاضمة یندفع و یخرج أولا فأولا أ فلا تری کیف وکل الله سبحانه بلطف صنعه و حسن تقدیره هذه القوی بالبدن و القیام بما فیه صلاحه و سأمثل لک فی ذلک مثالا إن البدن بمنزلة دار الملک له فیها حشم و صبیة

توحیدالمفضل ص : ۷۷

و قوام موکلون بالدار فواحد لقضاء حوائج الحشم و إیرادها علیهم و آخر لقبض ما یرد و خزنة إلی أن یعالج و یهیأ و آخر لعلاج ذلک و تهیئته و تفریقه و آخر لتنظیف ما فی الدار من الأقذار و إخراجه منها فالملک فی هذا هو الخلاق الحکیم ملک العالمین و الدار هی البدن و الحشم هم الأعضاء و القوام هم هذه القوی الأربع و لعلک تری ذکرنا هذه القوی الأربع و أفعالها بعد الذی وصفت فضلا و تزدادا و لیس ما ذکرته من هذه القوی علی الجهة التی ذکرت فی کتب الأطباء و لا قولنا فیه کقولهم لأنهم ذکروها علی ما یحتاج إلیه فی صناعة الطب و تصحیح الأبدان و ذکرناها علی ما یحتاج فی صلاح الدین و شفاء النفوس من الغی کالذی أوضحته بالوصف الشافی و المثل المضروب من التدبیر و الحکمة فیها

قوی النفس و موقعها من الإنسان

تأمل یا مفضل هذه القوی التی فی النفس و موقعها من الإنسان

توحیدالمفضل ص : ۷۸

أعنی الفکر و الوهم و العقل و الحفظ و غیر ذلک أ فرأیت لو نقص الإنسان من هذه الخلال الحفظ وحده کیف کانت تکون حاله و کم من خلل کان یدخل علیه فی أموره و معاشه و تجاربه إذا لم یحفظ ما له و ما علیه و ما أخذه و ما أعطی و ما رأی و ما سمع و ما قال و ما قیل له و لم یذکر من أحسن إلیه ممن أساء به و ما نفعه مما ضره ثم کان لا یهتدی لطریق لو سلکه ما لا یحصی و لا یحفظ علما و لو درسه عمره و لا یعتقد دینا و لا ینتفع بتجربة و لا یستطیع أن یعتبر شیئا علی ما مضی بل کان حقیقا أن ینسلخ من الإنسانیة

النعمة على الإنسان فى الحفظ و النسيان

فانظر إلى النعمة على الإنسان فى هذه الخلال و كيف موقع الواحدة منها دون الجميع و أعظم من النعمة على الإنسان فى الحفظ النعمة فى النسيان فإنه لو لا النسيان لما سلا أحد عن مصيبة و لا انقضت له حسرة و لا مات له حقد و لا استمتع بشىء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات و لا رجاء غفلة من سلطان و لا فترة من حاسد أ فلا ترى كيف جعل فى الإنسان الحفظ و النسيان و هما مختلفان متضادان و جعل له فى كل منهما ضربا من المصلحة و ما عسى أن يقول الذين قسموا الأشياء بين خالقين متضادين فى هذه الأشياء المتضادة المتباينة و قد تراها تجتمع

توحيدالمفضل ص : ٧٩

على ما فيه الصلاح و المنفعة

اختصاص الإنسان بالحياء دون بقية الحيوانات

انظر يا مفضل إلى ما خص به الإنسان دون جميع الحيوان من هذا الخلق الجليل قدره العظيم غناؤه أعنى الحياء فلولاه لم يقر ضيف و لم يوف بالعداة و لم تقض الحوائج و لم يتحر الجميل و لم يتنكب القبيح فى شىء من الأشياء حتى إن كثيرا من الأمور المفترضة أيضا إنما يفعل للحياء فإن من الناس من لو لا الحياء لم يرع حق والديه و لم يصل ذا رحم و لم يؤد أمانة و لم يعف عن فاحشة أ فلا ترى كيف وفى الإنسان جميع الخلال التى فيها صلاحه و تمام أمره

اختصاص الإنسان بالمنطق و الكتابة

تأمل يا مفضل ما أنعم الله تقدست أسماؤه به على الإنسان من هذا المنطق الذى يعبر به عما فى ضميره و ما يخطر بقلبه و ينتجه فكره

توحيدالمفضل ص : ٨٠

و به يفهم عن غيره ما فى نفسه و لو لا ذلک كان بمنزله البهائم المهملة التى لا تخبر عن نفسها بشىء و لا تفهم عن مخبر شيئا و كذلک الكتابة التى بها تقيد أخبار الماضين للباقين و أخبار الباقين للآتين و بها تخلد الكتب فى العلوم و الآداب و غيرها و بها يحفظ الإنسان ذكر ما يجرى بينه و بين غيره من المعاملات و الحساب و لولاه لانقطع أخبار بعض الأزمنة عن بعض و أخبار الغائبين عن أوطانهم و درست العلوم و ضاعت الآداب و عظم ما يدخل على الناس من الخلل فى أمورهم و معاملاتهم و ما يحتاجون

إلى النظر فيه من أمر دينهم و ما روى لهم مما لا يسعهم جهله و لعلک تظن أنها مما يخلص إليه بالحيلة و الفطنة و ليست مما أعطيه الإنسان من خلقه و طباعه و كذلک الكلام إنما هو شيء يصطلح عليه الناس فيجرى بينهم و لهذا صار يختلف فى الأمم المختلفة و كذلک لكتابة العربى و السريانى و العبرانى و الرومى و غيرها من سائر الكتابة التى هى متفرقة فى الأمم إنما اصطلحوا عليها كما اصطلحوا على الكلام فيقال لمن ادعى ذلک أن الإنسان و إن كان له فى الأمرين جميعا فعل أو حيلة فإن الشيء الذى يبلغ به ذلک الفعل و الحيلة عطية و هبة من الله عز و جل له فى خلقه فإنه لو لم يكن له لسان مهيأ للكلام و ذهن يهتدى به للأمور لم يكن ليتكلم أبدا و لو لم تكن له كف مهيئة و أصابع للكتابة لم يكن ليكتب أبدا و اعتبر ذلک من البهائم التى لا كلام لها و لا كتابة فأصل ذلک فطرة البارى جل و عز و ما تفضل به على خلقه فمن شكر أثيب

و من كفر فإن الله غنى عن العالمين

إعطاء الإنسان ما يصلح دينه و دنياه و منعه مما سوى ذلک

فكر يا مفضل فيما أعطى الإنسان علمه و ما منع فإنه أعطى جميع علم ما فيه صلاح دينه و دنياه فمما فيه صلاح دينه معرفة الخالق تبارک و تعالى بالدلائل و الشواهد القائمة فى الخلق و معرفة الواجب عليه من العدل على الناس كافة و بر الوالدين و أداء الأمانة و مواساة أهل الخلة و أشباه ذلک مما قد توجد معرفته و الإقرار و الاعتراف به فى الطبع و الفطرة من كل أمة موافقة أو مخالفة و كذلک أعطى علم ما فيه صلاح دنياه كالزراعة و الغراس و استخراج الأرضين و اقتناء الأغنام و الأنعام و استنباط المياه و معرفة العقاقير التى يستشفى بها من ضروب الأسقام و المعادن التى يستخرج منها أنواع الجواهر و ركوب السفن و الغوص فى البحر و ضروب الحيل فى صيد الوحش و الطير و الحيتان و التصرف فى الصناعات و وجوه المتاجر و المكاسب و غير ذلک مما يطول شرحه و يكثر تعداده مما فيه صلاح أمره فى هذه الدار فأعطى علم ما يصلح به دينه و دنياه و منع ما سوى ذلک مما ليس فى شأنه و لا طاقته أن يعلم كعلم الغيب و ما هو كائن و بعض ما قد كان أيضا كعلم ما فوق السماء و ما تحت الأرض و ما فى لجج البحار و أقطار العالم و ما فى قلوب الناس و ما فى الأرحام و أشباه هذا مما حجب عن الناس علمه

و قد ادعت طائفة من الناس هذه الأمور فأبطل دعواهم ما يبين من خطئهم فيما يقضون عليه و يحكمون به فيما ادعوا عليه فانظر كيف أعطى الإنسان علم جميع ما يحتاج إليه لدينه و دنياه و حجب عنه ما سوى ذلک ليعرف قدره و نقصه و كلا الأمرين فيها صلاحه

ما ستر عن الإنسان علمه من مدة حياته

تأمل الآن يا مفضل ما ستر عن الإنسان علمه من مدة حياته فإنه لو عرف مقدار عمره و كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش مع ترقب الموت و توقعه لوقت قد عرفه بل كان يكون بمنزلة من قد فنى ماله أو قارب الفناء فقد استشعر الفقر و الوجل من فناء ماله و خوف الفقر على أن الذى يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال لأن من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه فيسكن إلى ذلک و من أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس و إن كان طويل العمر ثم عرف ذلک وثق بالبقاء و انهمک فى اللذات و المعاصى و عمل على أنه يبلغ من ذلک شهوته ثم يتوب فى آخر عمره و هذا مذهب لا يرضاه الله من عباده و لا يقبله أ لا ترى لو أن عبدا لک عمل على أنه يسخطک سنة و يرضيک يوما أو شهرا لم تقبل ذلک منه و لم يحل عندک محل العبد الصالح دون أن يضمر طاعتک و نصحک فى كل الأمور و فى كل الأوقات على تصرف الحالات فإن قلت أ و ليس قد يقيم الإنسان على المعصية حينا ثم يتوب فتقبل توبته قلنا إن ذلک شىء يكون من الإنسان لغلبة

الشهوات له و تركه مخالفتها من غير أن يقدرها فى نفسه و يبنى عليه أمره فيصفح الله عنه و يتفضل عليه بالمغفرة فأما من قدر أمره على أن يعصى ما بدا له ثم يتوب آخر ذلک فإنما يحاول خديعة من لا يخادع بأن يتسلف التلذذ فى العاجل و يعد و يمنى نفسه التوبة فى الأجل و لأنه لا يفى بما يعد من ذلک فإن النزوع من الترفه و التلذذ و معاناة التوبة و لا سيما عند الكبر و ضعف البدن أمر صعب و لا يؤمن على الإنسان مع مدافعته بالتوبة أن يرهقه الموت فيخرج من الدنيا غير تائب كما قد يكون على الواحد دين إلى أجل و قد يقدر على قضائه فلا يزال يدافع بذلک حتى يحل الأجل و قد نفذ المال فيبقى الدين قائما عليه فكان خير الأشياء للإنسان أن يستر عنه مبلغ عمره فيكون

طول عمره يترقب الموت فيترک المعاصی و يؤثر العمل الصالح فإن قلت و ها هو الآن قد ستر عنه مقدار حياته و صار يترقب الموت فی کل ساعة يقارف الفواحش و ينتهک المحارم قلنا إن وجه

توحيدالمفضل ص : ۸۴

التدبير فی هذا الباب هو الذی جری عليه الأمر فيه فإن کان الإنسان مع ذلک لا يرعوی و لا ينصرف عن المساوئ فإنما ذلک من مرحه و من قساوة قلبه لا من خطإ فی التدبير کما أن الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به فإن کان المريض مخالفا لقول الطبيب لا يعمل بما يأمره و لا ينتهی عما ينهاه عنه لم ينتفع بصفته و لم تکن الإساءة فی ذلک للطبيب بل للمريض حيث لم يقبل منه و لئن کان الإنسان مع ترقبه للموت کل ساعة لا يمتنع عن المعاصی فإنه لو وثق بطول البقاء کان أحری بأن يخرج إلی الکبائر الفظيعة فترقب الموت علی کل حال خير له من الثقة بالبقاء ثم إن ترقب الموت و إن کان صنف من الناس يلهون عنه و لا يتعظون به فقد يتعظ به صنف آخر منهم و ينزعون عن المعاصی و يؤثرون العمل الصالح و يجودون بالأموال و العقائل النفيسة فی الصدقة علی الفقراء و المساکين فلم يکن من العدل أن يحرم هؤلاء الانتفاع بهذه الخصلة لتضييع أولئک حظهم منها

الأحلام و امتزاج صادقها بکاذبها و سر ذلک

فکر يا مفضل فی الأحلام کيف دبر الأمر فيها فمزج صادقها

توحيدالمفضل ص : ۸۵

بکاذبها فإنها لو کانت کلها تصدق لکان الناس کلهم أنبياء و لو کانت کلها تکذب لم يکن فيها منفعة بل کانت فضلا لا معنی له فصارت تصدق أحيانا فينتفع بها الناس فی مصلحة يهتدی لها أو مضرة يتحذر منها و تکذب کثيرا لئلا يعتمد عليها کل الاعتماد الأشياء المخلوقة لمآرب الإنسان و إيضاح ذلک

فکر يا مفضل فی هذه الأشياء التی تراها موجودة معدة فی العالم من مآربهم فالتراب للبناء و الحديد للصناعات و الخشب للسفن و غيرها و الحجارة للأرحاء و غيرها و النحاس للأوانی و الذهب و الفضة للمعاملة و الذخيرة و الحبوب للغذاء و الثمار للتفکه و اللحم للمأکل و الطيب للتلذذ و الأدوية للتصحح و الدواب للحمولة و الحطب للتوقد و الرماد للکلس و الرمل للأرض و کم عسی أن يحصی المحصی من هذا

و شبهه أ رأيت لو أن داخلا دخل دارا فنظر إلى خزائن مملوءة من كل ما يحتاج إليه الناس و رأى كلما فيها مجموعا معدا لأسباب معروفة أ كان يتوهم أن مثل هذا يكون بالإهمال و من غير عمد فكيف يستجيز قائل أن يقول هذا من صنع الطبيعة فى العالم و ما أعد فيه من هذه الأشياء

توحيدالمفضل ص : ٨٦

اعتبر يا مفضل بأشياء خلقت لمآرب الإنسان و ما فيها من التدبير فإنه خلق له الحب لطعامه و كلف طحنه و عجنه و خبزة و خلق له الوبر لكسوته فكلف ندفه و غزله و نسجه و خلق له الشجر فكلف غرسها و سقيها و القيام عليها و خلقت له العقاقير لأدويته فكلف لقطها و خلطها و صنعها و كذلک تجد سائر الأشياء على هذا المثال فانظر كيف كفى الخلقة التى لم يكن عنده فيها حيلة و ترک عليه فى كل شىء من الأشياء موضع عمل و حركة لما له فى ذلک من الصلاح لأنه لو كفى هذا كله حتى لا يكون له فى الأشياء موضع شغل و عمل لما حملته الأرض أشرا و بطرا و لبلغ به ذلک إلى أن يتعاطى أمورا فيها تلف نفسه و لو كفى الناس كلما يحتاجون إليه لما تهنئوا بالعيش و لا وجدوا له لذة أ لا ترى لو أن امرأ نزل بقوم فأقام حينا بلغ جميع ما يحتاج إليه من مطعم و مشرب و خدمة لتبرم بالفراغ و نازعته نفسه إلى التشاغل بشىء فكيف لو كان طول عمره مكفيا لا يحتاج إلى شىء فكان من صواب التدبير فى هذه الأشياء التى خلقت للإنسان أن جعل له فيها موضع شغل لكيلا تبرمه البطالة و لتكفه عن تعاطى ما لا يناله و لا خير فيه إن ناله

توحيدالمفضل ص : ٨٧

الخبز و الماء رأس معاش الإنسان و حياته

و اعلم يا مفضل أن رأس معاش الإنسان و حياته الخبز و الماء فانظر كيف دبر الأمر فيهما فإن حاجة الإنسان إلى الماء أشد من حاجته إلى الخبز و ذلک أن صبره على الجوع أكثر من صبره على العطش و الذى يحتاج إليه من الماء أكثر مما يحتاج إليه من الخبز لأنه يحتاج إليه لشربه و وضوئه و غسله و غسل ثيابه و سقى أنعامه و زرعه فجعل الماء مبذولا لا يشترى لتسقط عن الإنسان المئونة فى طلبه و تكلفه و جعل الخبز متعذرا لا ينال إلا بالحيلة و الحركة ليكون للإنسان فى ذلک شغل يكفه عما يخرجه إليه الفراغ من الأشر و العبث أ لا ترى أن الصبى يدفع إلى المؤدب و هو طفل

لم تكمل ذاته للتعليم كل ذلک ليشتغل عن اللعب و العبث الذين ربما جنيا عليه و على أهله المكروه العظيم و هكذا الإنسان لو خلا من الشغل لخرج من الأشر و العبث و البطر إلى ما يعظم ضرره عليه و على من قرب منه و اعتبر ذلک بمن نشأ فى الجدة و رفاهية العيش و الترفه و الكفاية و ما يخرجه ذلک إليه

اختلاف صور الناس و تشابه الوحوش و الطير و غيرها من الحكمة فى ذلک

اعتبر لم لا يتشابه الناس واحد بالآخر كما تتشابه الوحوش و الطير و غير ذلک فإنک ترى السرب من الظباء و القطا تتشابه حتى لا يفرق

توحيدالمفضل ص : ٨٨

بين واحد منها و بين الأخرى و ترى الناس مختلفة صورهم و خلقهم حتى لا يكاد اثنان منهم يجتمعان فى صفة واحدة و العلة فى ذلک أن الناس محتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم و حلاهم لما يجرى بينهم من المعاملات و ليس يجرى بين البهائم مثل ذلک فيحتاج إلى معرفة كل واحد منها بعينه و حليته أ لا ترى أن التشابه فى الطير و الوحش لا يضرها شيئا و ليس كذلک الإنسان فإنه ربما تشابه التوأم تشابها شديدا فتعظم المئونة على الناس فى معاملتهما حتى يعطى أحدهما بالآخر و يؤخذ أحدهما بذنب الآخر و قد يحدث مثل هذا فى تشابه الأشياء فضلا عن تشابه الصور فمن لطف بعباده بهذه الدقائق التى لا تكاد تخطر بالبال حتى وقف بها على الصواب إلا من وسعت رحمته كل شيء لو رأيت تمثال الإنسان مصورا على حائط و قال لک قائل إن هذا ظهر هنا من تلقاء نفسه لم يصنعه صانع أ كنت تقبل ذلک بل كنت تستهزئ به فكيف تنكر هذا فى تمثال مصور جماد و لا تنكر فى الإنسان الحى الناطق

توحيدالمفضل ص : ٨٩

نمو أبدان الحيوان و توقفها و سبب ذلک

لم صارت أبدان الحيوان و هى تغتذى أبدا لا تنمى بل تنتهى إلى غاية من النمو ثم تقف و لا تتجاوزها لو لا التدبير فى ذلک فإن تدبير الحكيم فيها أن تكون أبدان كل صنف منها على مقدار معلوم غير متفاوت فى الكبير و الصغير و صارت تنمى حتى تصل إلى غايتها ثم تقف ثم لا تزيد و الغذاء مع ذلک دائم لا ينقطع و لو تنمى نموا دائما لعظمت أبدانها و اشتبهت مقاديرها حتى لا يكون لشيء منها حد يعرف

ما يعترى أجسام الإنس من ثقل الحركة و المشى لو لم يصبها ألم

لم صارت أجسام الإنس خاصة تثقل عن الحركة و المشى و تجفو عن الصناعات اللطيفة إلا لتعظيم المئونة فيما يحتاج إليه الناس للملبس و المضجع و التكفين و غير ذلک لو كان الإنسان لا يصيبه ألم و لا وجع بم كان يرتدع عن الفواحش و يتواضع لله و يتعطف على الناس...

توحيدالمفضل ص : ٩٠

أ ما ترى الإنسان إذا عرض له وجع خضع و استكان و رغب إلى ربه فى العافية و بسط يده بالصدقة و لو كان لا يألم من الضرب بم كان السلطان يعاقب الدعار و يذل العصاة المردة و بم كان الصبيان يتعلمون العلوم و الصناعات و بم كان العبيد يذلون لأربابهم و يذعنون لطاعتهم أ فليس هذا توبيخ ابن أبى العوجاء و ذويه الذين جحدوا التدبير و المانوية الذين أنكروا الوجع و الألم

انقراض الحيوان لو لم يلد ذكورا و إناثا

و لو لم يولد من الحيوان إلا ذكر فقط أو أنثى فقط أ لم يكن النسل منقطعا و باد مع أجناس الحيوان فصار بعض الأولاد يأتى ذكورا و بعضها يأتى إناثا ليدوم التناسل و لا ينقطع

ظهور شعر العانة عند البلوغ و نبات اللحية للرجل دون المرأة و ما فى ذلک من التدبير

لم صار الرجل و المرأة إذا أدركا تنبت لهما العانة ثم تنبت اللحية للرجل و تتخلف عن المرأة لو لا التدبير فى ذلک فإنه لما جعل الله تبارک

توحيدالمفضل ص : ٩١

و تعالى الرجل قيما و رقيبا على المرأة و جعل المرأة عرسا و خولا للرجل أعطى الرجل اللحية لما له من العز و الجلالة و الهيبة و منعها المرأة لتبقى لها نضارة الوجه و البهجة التى تشاكل المفاكهة و المضاجعة أ فلا ترى الخلقة كيف تأتى بالصواب فى الأشياء و تتخلل مواضع الخطإ فتعطى و تمنع على قدر الأرب و المصلحة بتدبير الحكيم عز و جل قال المفضل ثم حان وقت الزوال فقام مولاى إلى الصلاة و قال بكر إلى غدا إن شاء الله تعالى فانصرفت من عنده مسرورا بما عرفته مبتهجا بما أوتيته حامدا لله تعالى عز و جل على ما أنعم به على شاكرا لأنعمه على ما منحنى بما عرفنيه مولاى و تفضل به على فبت فى ليلتى مسرورا بما منحنيه محبور بما علمنيه

توحیدالمفضل ص : ۹۲

المجلس الثانی

قال المفضل فلما کان الیوم الثانی بکرت إلی مولای فاستؤذن لی فدخلت فأمرنی بالجلوس فجلست فقال الحمد لله مدبر الأدوار و معید الأکوار طبقا عن طبق و عالما بعد عالم لیجزی الذین أساءوا بما عملوا و یجزی الذین أحسنوا بالحسنی عدلا منه تقدست أسماؤه و جلت آلاؤه لا یظلم الناس شیئا و لکن الناس أنفسهم یظلمون یشهد بذلک قوله جل قدسه فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ فی نظائر لها فی کتابه الذی فیه تبیان کل شیء و لا یأتیه الباطل من بین یدیه و لا من خلفه تنزیل من حکیم حمید و لذلک

توحیدالمفضل ص : ۹۳

قال سیدنا محمد ص إنما هی أعمالکم ترد إلیکم ثم أطرق الإمام هنیئة و قال یا مفضل الخلق حیاری عمهون سکاری فی طغیانهم یترددون و بشیاطینهم و طواغیتهم یقتدون بصراء عمی لا یبصرون نطقاء بکم لا یعقلون سمعاء صم لا یسمعون رضوا بالدون و حسبوا أنهم مهتدون حادوا عن مدرجة الأکیاس و رتعوا فی مرعی الأرجاس الأنجاس کأنهم من مفاجأة الموت آمنون و عن المجازات مزحزحون یا ویلهم

توحیدالمفضل ص : ۹۴

ما أشقاهم و أطول عناءهم و أشد بلاءهم یوم لا یغنی مولی عن مولی شیئا و لا هم ینصرون إلا من رحم الله قال المفضل فبکیت لما سمعت منه فقال لا تبک تخلصت إذ قبلت و نجوت إذ عرفت

أبنیة أبدان الحیوان و تهیئتها و إیضاح ذلک

ثم قال أبتدئ لک بذکر الحیوان لیتضح لک من أمره ما وضح لک من غیره فکر فی أبنیة أبدان الحیوان و تهیئتها علی ما هی علیه فلا هی صلاب کالحجارة و لو کانت کذلک لا تنثنی و لا تتصرف فی الأعمال و لا هی علی غایة اللین و الرخاوة فکانت لا تتحامل و لا تستقل بأنفسها فجعلت من لحم رخو ینثنی تتداخله عظام صلاب یمسکه عصب و عروق تشده و تضم بعضه إلی بعض و غلقت فوق ذلک بجلد یشتمل علی البدن کله و أشباه ذلک هذه التماثیل التی تعمل من العیدان و تلف بالخرق و تشد بالخیوط و تطلی فوق ذلک بالصمغ فتکون العیدان بمنزلة العظام و الخرق بمنزلة اللحم و الخیوط بمنزلة

العصب و العروق و الطلاء بمنزلة الجلد فإن جاز أن يكون الحيوان المتحرک حدث بالإهمال من غير صانع جاز أن يكون ذلک فی هذه التماثيل الميتة فإن كان هذا غير جائز فی التماثيل فبالحری أن لا يجوز فی الحيوان

توحيدالمفضل ص : ۹۵

أجساد الأنعام و ما أعطيت و ما منعت و سبب ذلک

و فكر يا مفضل بعد هذا فی أجساد الأنعام فإنها حين خلقت على أبدان الإنس من اللحم و العظم و العصب أعطيت أيضا السمع و البصر ليبلغ الإنسان حاجته فإنها لو كانت عميا صما لما انتفع بها الإنسان و لا تصرفت فی شیء من مآربه ثم منعت الذهن و العقل لتذل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا كدها الكد الشديد و حملها الحمل الثقيل فإن قال قائل إنه قد يكون للإنسان عبيد من الإنس يذلون و يذعنون بالكد الشديد و هم مع ذلک غير عديمی العقل و الذهن فيقال فی جواب ذلک إن هذا الصنف من الناس قليل فأما أكثر الناس فلا يذعنون بما تذعن به الدواب من الحمل و الطحن و ما أشبه ذلک و لا يغرون بما يحتاج إليه منه ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذه الأعمال بأبدانهم لشغلوا بذلک عن سائر الأعمال لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد و البغل الواحد إلى عدة أناسی فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم عنه فضل لشیء من الصناعات مع ما يلحقه من التعب الفادح فی أبدانهم و الضيق و الكد فی معاشهم

توحيدالمفضل ص : ۹۶

خلق الأصناف الثلاثة من الحيوان

فكر يا مفضل فی هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان و فی خلقها على ما هی عليه مما فيه صلاح كل واحد منها فالإنس لما قدروا أن يكونوا ذوی ذهن و فطنة و علاج لمثل هذه الصناعات من البناء و التجارة و الصياغة و الخياطة و غير ذلک خلقت لهم أكف كبار ذوات أصابع غلاظ ليتمكنوا من القبض على الأشياء و أوكدها هذه الصناعات

آكلات اللحم من الحيوان و التدبير فی خلقها

و آكلات اللحم لما قدر أن تكون معايشها من الصيد خلقت لهم أكف لطاف مدمجة ذوات براثن و مخالب تصلح لأخذ الصيد و لا تصلح للصناعات و آكلات النبات لما قدر أن يكونوا لا ذوات صنعه و لا ذات صيد خلقت لبعضها أظلاف تقيها خشونة الأرض إذا حاولت طلب المرعى و لبعضها حوافر ململمة ذوات قعر

توحیدالمفضل ص : ۹۷

کأخمص القدم تنطبق علی الأرض عند تهیئها للرکوب و الحمولة تأمل التدبیر فی خلق آکلات اللحم من الحیوان حین خلقت ذوات أسنان حداد و براثن شداد و أشداق و أفواه واسعة فإنه لما قدر أن یکون طعمها اللحم خلقت خلقه تشاکل ذلک و أعینت بسلاح و أدوات تصلح للصید و کذلک تجد سباع الطیر ذوات مناقیر و مخالب مهیئة لفعلها و لو کانت الوحوش ذوات مخالب کانت قد أعطیت ما لا تحتاج إلیه لأنها لا تصید و لا تأکل اللحم و لو کانت السباع ذوات أظلاف کانت قد منعت ما تحتاج إلیه أعنی السلاح الذی تصید به و تتعیش أ فلا تری کیف أعطی کل واحد من الصنفین ما یشاکل صنفه و طبقته بل ما فیه بقاؤه و صلاحه

ذوات الأربع و استقلال أولادها

انظر الآن إلی ذوات الأربع کیف تراها تتبع أماتها مستقلة بأنفسها لا تحتاج إلی الحمل و التربیة کما تحتاج أولاد الإنس فمن أجل أنه لیس عند أماتها ما عند أمهات البشر من الرفق و العلم بالتربیة و القوة علیها بالأکف و الأصابع المهیأة لذلک أعطیت النهوض و الاستقلال بأنفسها و کذلک

توحیدالمفضل ص : ۹۸

تری کثیرا من الطیر کمثل الدجاج و الدراج و القبج تدرج و تلقط حین تنقاب عنها البیضة فأما ما کان منها ضعیفا لا نهوض فیه کمثل فراخ الحمام و الیمام و الحمر فقد جعل فی الأمهات فضل عطف علیها فصارت تمج الطعام فی أفواهها بعد ما توعیه حواصلها فلا تزال تغذوها حتی تستقل بأنفسها و لذلک لم ترزق الحمام فراخا کثیرة مثل ما ترزق الدجاج لتقوی الأم علی تربیة فراخها فلا تفسد و لا تموت فکلا أعطی بقسط من تدبیر الحکیم اللطیف الخبیر

توحیدالمفضل ص : ۹۹

قوائم الحیوان و کیفیة حرکتها

انظر إلی قوائم الحیوان کیف تأتی أزواجا لتتهیأ للمشی و لو کانت أفرادا لم تصلح لذلک لأن الماشی ینقل قوائمه یعتمد علی بعض فذو القائمتین ینقل واحدة و یعتمد علی واحدة و ذو الأربع ینقل اثنتین و یعتمد علی اثنتین و ذلک من خلاف لأن ذا الأربع لو کان ینقل قائمتین من أحد جانبیه و یعتمد علی قائمتین من الجانب الآخر لم یثبت

على الأرض كما يثبت السرير و ما أشبهه فصار ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسرى من مآخيره و ينقل الأخريين أيضا من خلاف فيثبت على الأرض و لا يسقط إذا مشى

انقياد الحيوانات المسخرة للإنسان و سببه

أ ما ترى الحمار كيف يذل للطحن و الحمولة و هو يرى الفرس مودعا منعما و البعير لا يطيقه عدة رجال لو استعصى كيف كان ينقاد للصبى و الثور الشديد كيف كان يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه و يحرث به و الفرس الكريم يركب السيوف و الأسنة بالمواتاة لفارسه و القطيع من الغنم يرعاه واحد و لو تفرقت الغنم فأخذ كل واحد منها فى

ناحية لم يلحقها و كذلک جميع الأصناف المسخرة للإنسان كانت كذلک إلا بأنها عدمت العقل و الروية فإنها لو كانت تعقل و تتروى فى الأمور كانت خليقة أن تلتوى على الإنسان فى كثير من مآربه حتى يمتنع الجمل على قائده و الثور على صاحبه و تتفرق الغنم عن راعيها و أشباه هذا من الأمور

افتقاد السباع للعقل و الروية و فائدة ذلک

و كذلک هذه السباع لو كانت ذات عقل و رويه فتوازرت على الناس كانت خليقة أن تجتاحهم فمن كان يقوم للأسد و الذئاب و النمور و الدببة لو تعاونت و تظاهرت على الناس أ فلا ترى كيف حجر ذلک عليها و صارت مكان ما كان يخاف من إقدامها و نكايتها تهاب مساكن الناس و تحجم عنها ثم لا تظهر و لا تنتشر لطلب قوتها إلا بالليل فهى مع صولتها كالخائف من الإنس بل مقموعة ممنوعة منهم و لو كان ذلک لساورتهم فى مساكنهم و ضيقت عليهم

عطف الكلب على الإنسان و محاماته عنه

ثم جعل فى الكلب من بين هذه السباع عطف على مالكه و محاماة

عنه و حافظ له ينتقل على الحيطان و السطوح فى ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه و ذب الذعار عنه و يبلغ من محبته لصاحبه أن يبذل نفسه للموت دونه و دون ماشيته و ماله و يألفه غاية الألف حتى يصبر معه على الجوع و الجفوة فلم طبع الكلب على هذه الألفة و المحبة إلا ليكون حارسا للإنسان له عين بأنياب و مخالب و نباح هائل ليذعر

منه السارق و يتجنب المواضع التى يحميها و يخفرها

وجه الدابة و فمها و ذنبها و شرح ذلک

يا مفضل تأمل وجه الدابة كيف هو فإنک ترى العينين شاخصتين أمامها لتبصر ما بين يديها لئلا تصدم حائطا أو تتردى فى حفرة و ترى الفم مشقوقا شقا فى أسفل الخطم و لو شق كمكان الفم من الإنسان فى مقدم الذقن لما استطاع أن يتناول به شيئا من الأرض أ لا ترى أن الإنسان لا يتناول الطعام بفيه و لكن بيده تكرمه له على

سائر الأكلات فلما لم يكن للدابة يد تتناول بها العلف جعل خرطومها مشقوقا من أسفله لتقبض على العلف ثم تقضمه و أعينت بالجحفلة لتتناول بها ما قرب و ما بعد اعتبر بذنبها و المنفعة لها فيه فإنه بمنزلة الطبق على الدبر و الحياء جميعا يواريهما و يسترهما و من منافعها فيه أن ما بين الدبر و مراقى البطن منها وضر يجتمع عليها الذباب و البعوض فجعل لها الذنب كالمذبة تذب بها عن تلک المواضع و منها أن الدابة تستريح إلى تحريكه و تصريفه يمنة و يسرة فإنه لما كان قيامها على الأربع بأسرها و شغلت المقدمتان بحمل البدن عن التصرف و التقلب كان لها فى تحريک الذنب راحة و فيه منافع أخرى يقصر عنها الوهم فيعرف موقعها فى وقت الحاجة إليها فمن ذلک أن الدابة ترتطم فى الوحل فلا يكون شىء أعون على نهوضها من الأخذ بذنبها و فى شعر الذنب منافع للناس كثيرة يستعملونها فى مآربهم ثم جعل ظهرها مسطحا مبطوحا على قوائم أربع ليتمكن من ركوبها و جعل حياها بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضربها و لو كان أسفل البطن كما كان الفرج من المرأة

لم يتمكن الفحل منها أ لا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحا كما يأتى الرجل المرأة

الفيل و مشفره

تأمل مشفر الفيل و ما فيه من لطيف التدبير فإنه يقوم مقام اليد فى تناول العلف و الماء و ازدرادهما إلى جوفه و لو لا ذلک لما استطاع أن يتناول شيئا من الأرض لأنه ليست له رقبة يمدها كسائر الأنعام فلما عدم العنق أعين مكان ذلک بالخرطوم الطويل ليسد له فيتناول به حاجته فمن ذا الذى عوضه مكان العضو الذى عدم ما يقوم مقامه إلا الرءوف بخلقه و كيف يكون هذا بالإهمال كما قالت الظلمة فإن قال قائل فما

باله لم يخلق ذا عنق كسائر الأنعام قيل إن رأس الفيل و أذنيه أمر عظيم و ثقل ثقيل فلو كان ذلک على عنق عظيم لهدها و أوهنها فجعل رأسه ملصقا بجسمه لكيلا يناله منه ما وصفناه و خلق له مكان العنق هذا المشفر ليتناول به غذاءه فصار مع عدم العنق مستوفيا ما فيه بلوغ حاجته

توحيدالمفضل ص : ١٠۴

حياء الأنثى من الفيلة

انظر الآن كيف جعل حياء الأنثى من الفيلة فى أسفل بطنها فإذا هاجت للضراب ارتفع و برز حتى يتمكن الفحل من ضربها فاعتبر كيف جعل حياء الأنثى من الفيلة على خلاف ما عليه فى غيرها من الأنعام ثم جعلت فيه هذه الخلة ليتهيأ للأمر الذى فيه قوام النسل و دوامه

الزرافة و خلقتها و كونها ليست من لقاح أصناف شتى

فكر فى خلق الزرافة و اختلاف أعضائها و شبهها بأعضاء أصناف من الحيوان فرأسها رأس فرس و عنقها عنق جمل و أظلافها أظلاف بقرة و جلدها جلد نمر و زعم ناس من الجهال بالله عز و جل أن نتاجها من فحول شتى قالوا و سبب ذلک أن أصنافا من حيوان البر إذا وردت الماء تنزو على بعض السائمة و ينتج مثل هذا الشخص الذى هو كالملتقط من أصناف شتى و هذا جهل من قائله و قله معرفة بالبارئ جل قدسه و ليس كل صنف من الحيوان يلقح كل صنف فلا الفرس يلقح الجمل و لا الجمل يلقح البقر و إنما يكون التلقيح من بعض الحيوان فيما يشاكله و يقرب من خلقه كما يلقح الفرس الحمار فيخرج بينهما البغل و يلقح الذئب الضبع فيخرج من بينهما السمع على أنه ليس يكون فى الذى يخرج من بينهما عضو كل واحد منهما كما فى الزرافة عضو من الفرس

توحيدالمفضل ص : ١٠۵

و عضو من الجمل و أظلاف من البقرة بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كالذى تراه فى البغل فإنک ترى رأسه و أذنيه و كفله و ذنبه و حوافره وسطا بين هذه الأعضاء من الفرس و الحمار و شحيجه كالممتزج من صهيل الفرس و نهيق الحمار فهذا دليل على أنه ليست الزرافة من لقاح أصناف شتى من الحيوان كما زعم الجاهلون بل هى خلق عجيب من خلق الله للدلالة على قدرته التى لا يعجزها شىء و ليعلم أنه خالق

أصناف الحيوان كلها يجمع بين ما يشاء من أعضائها فى أيها شاء و يفرق ما شاء منها فى أيها شاء و يزيد فى الخلقة ما شاء و ينقص منها ما شاء دلالة على قدرته على الأشياء و أنه لا يعجزه شيء أراده جل و تعالى فأما طول عنقها و المنفعة لها فى ذلک فإن منشأها و مرعاها فى غياطل ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولا فى الهواء فهى تحتاج إلى طول العنق لتتناول بفيها أطراف تلک الأشجار فتقوت من ثمارها

القرد و خلقته و الفرق بينه و بين الإنسان

تأمل خلقة القرد و شبهه بالإنسان فى كثير من أعضائه أعنى الرأس و الوجه و المنكبين و الصدر و كذلک أحشاؤه شبيهة أيضا بأحشاء الإنسان و خص مع ذلک بالذهن و الفطنة التى بها يفهم عن سائسه ما يومئ إليه و يحكى

توحيدالمفضل ص : ١٠٦

كثيرا مما يرى الإنسان يفعله حتى إنه يقرب من خلق الإنسان و شمائله فى التدبير فى خلقته على ما هى عليه أن يكون عبرة للإنسان فى نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم و سنخها إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب و أنه لو لا فضيلة فضله بها فى الذهن و العقل و النطق كان كبعض البهائم على أن فى جسم القرد فضولا أخرى تفرق بينه و بين الإنسان كالخطم و الذنب المسدل و الشعر المجلل للجسم كله و هذا لم يكن مانعا للقرد أن يلحق بالإنسان لو أعطى مثل ذهن الإنسان و عقله و نطقه و الفصل الفاصل بينه و بين الإنسان فى الحقيقة هو النقص فى العقل و الذهن و النطق

إكساء أجسام الحيوانات و خلقة أقدامها بعكس الإنسان و أسباب ذلک

انظر يا مفضل إلى لطف الله جل اسمه بالبهائم كيف كسيت أجسامها هذه الكسوة من الشعر و الوبر و الصوف لتقيها من البرد و كثرة الآفات ألبست الأظلاف و الحافر و الأخفاف لتقيها من الحفاء إذ كانت لا أيدى لها و لا أكف و لا أصابع مهيأة للغزل و النسج فكفوا بأن جعل كسوتهم فى خلقهم باقية عليهم ما بقوا لا يحتاجون إلى تجديدها و استبدال بها فأما الإنسان فإنه ذو حيلة و كف مهيأة للعمل فهو ينسج و يغزل

توحيدالمفضل ص : ١٠٧

و يتخذ لنفسه الكسوة و يستبدل بها حالا بعد حال و له فى ذلک صلاح من جهات من ذلک أنه يشتغل بصنعة اللباس عن العبث و ما تخرجه إليه الكفاية و منها أنه يستريح

إلى خلع كسوته إذا شاء و لبسها إذا شاء و منها أن يتخذ لنفسه من الكسوة ضروبا لها جمال و روعة فيتلذذ بلبسها و تبديلها و كذلک يتخذ بالرفق من الصنعة ضروبا من الخفاف و النعال يقى بها قدميه و فى ذلک معايش لمن يعمله من الناس و مكاسب يكون فيها معايشهم و منها أقواتهم و أقوات عيالهم فصار الشعر و الوبر و الصوف يقوم للبهائم مقام الكسوة و الأظلاف و الحوافر و الأخفاف مقام الحذاء

مواراة البهائم عند إحساسها بالموت

فكر يا مفضل فى خلقة عجيبة جعلت فى البهائم فإنهم يوارون أنفسهم إذا ماتوا كما يوارى الناس موتاهم و إلا فأين جيف هذه الوحوش و السباع و غيرها لا يرى منها شىء و ليست قليلة فتخفى لقلتها بل لو قال قائل أنها أكثر من الناس لصدق فاعتبر فى ذلک بما تراه فى الصحارى و الجبال من أسراب الظباء

و المها و الحمير الوحش و الوعول و الأيائل و غير ذلک من الوحوش و أصناف السباع من الأسد و الضباع و الذئاب و النمور و غيرها و ضروب الهوام و الحشرات و دواب الأرض و كذلک أسراب الطير من الغربان و القطاة و الإوز و الكراكى و الحمام و سباع الطير جميعا و كلها لا يرى منها إذا ماتت إلا الواحد بعد الواحد يصيده قانص أو يفترسه سبع فإذا أحسوا بالموت كمنوا فى مواضع خفية فيموتون فيها و لو لا ذلک لامتلأت الصحارى منها حتى تفسد رائحة الهواء و تحدث الأمراض و الوباء فانظر إلى هذا بالذى يخلص إليه الناس و عملوه بالتمثيل الأول الذى مثل لهم كيف جعل طبعا و أذكارا فى البهائم و غيرها ليسلم

الناس من معرة ما يحدث عليهم من الأمراض و الفساد

الفطن التى جعلت فى البهائم الأيل و الثعلب و الدلفين

فكر يا مفضل فى الفطن التى جعلت فى البهائم لمصلحتها بالطبع و الخلقة لطفا من الله عز و جل لهم لئلا يخلو من نعمه جل و عز أحد من خلقه لا بعقل و روية فإن الأيل يأكل الحيات فيعطش عطشا شديدا فيمتنع من شرب الماء خوفا من أن يدب السم فى جسمه فيقتله و يقف على الغدير و هو مجهود عطشا فيعج عجيجا عاليا و لا يشرب منه و لو شرب لمات من ساعته فانظر إلى ما جعل من طباع هذه البهيمة من تحمل الظمأ

الغالب الشديد خوفا من المضرة فى الشرب و ذلک مما لا يكاد الإنسان العاقل المميز يضبطه من نفسه و الثعلب إذا أعوزه الطعم تماوت و نفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتا فإذا وقعت عليه لتنهشه وثب عليها فأخذها فمن أعان الثعلب العديم النطق و الروية بهذه الحيلة إلا من توكل بتوجيه الرزق له من هذا و شبهه فإنه لما كان الثعلب يضعف عن كثير مما تقوى عليه السباع من مساورة الصيد أعين بالدهاء و الفطنة و الاحتيال لمعاشه و الدلفين يلتمس صيد الطير فيكون حيلته فى ذلک أن

توحيدالمفضل ص : ١١٠

يأخذ السمک فيقتله و يسرحه حتى يطفو على الماء ثم يكمن تحته و يثور الماء الذى عليه حتى لا يتبين شخصه فإذا وقع الطير على السمک الطافى وثب إليها فاصطادها فانظر إلى هذه الحيلة كيف جعلت طبعا فى هذه البهيمة لبعض المصلحة

التنين و السحاب

قال المفضل فقلت أخبرنى يا مولاى عن التنين و السحاب فقال ع إن السحاب كالموكل به يختطفه حيثما ثقفه كما يختطف حجر المغناطيس الحديد فهو لا يطلع رأسه فى الأرض خوفا من السحاب و لا يخرج إلا فى القيظ مرة إذا صحت السماء فلم يكن فيها نكتة من غيمة قلت فلم وكل السحاب بالتنين يرصده و يختطفه إذا وجده قال ليدفع عن الناس مضرته

توحيدالمفضل ص : ١١١

فى الذرة و النمل و أسد الذباب و العنكبوت و طبائع كل منهما

قال المفضل فقلت قد وصفت لى يا مولاى من أمر البهائم ما فيه معتبر لمن اعتبر فصف لى الذرة و النملة و الطير فقال ع يا مفضل تأمل وجه الذرة الحقيرة الصغيرة هل تجد فيها نقصا عما فيه صلاحها فمن أين هذا التقدير و الصواب فى خلق الذرة إلا من التدبير القائم فى صغير الخلق و كبيره انظر إلى النمل و احتشاده فى جمع القوت و أعداده فإنک ترى الجماعة منها إذا نقلت الحب إلى زبيتها بمنزلة جماعة من الناس ينقلون الطعام أو غيره بل للنمل فى ذلک من الجد و التشمير ما ليس للناس مثله

توحيدالمفضل ص : ١١٢

أ ما تراهم يتعاونون على النقل كما يتعاون الناس على العمل ثم يعمدون إلى الحب فيقطعونه قطعا لكيلا ينبت فيفسد عليهم فإن أصابه ندى أخرجوه فنشروه حتى يجف

ثم لا يتخذ النمل الزبية إلا فى نشز من الأرض كيلا يفيض السيل فيغرقها و كل هذا منه بلا عقل و لا روية بل خلقة خلق عليها لمصلحة من الله جل و عز انظر إلى هذا الذى يقال له الليث و تسميه العامة أسد الذباب و ما أعطى من الحيلة و الرفق فى معاشه فإنک تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريبا منه تركه مليا حتى كأنه موات لا حراک به فإذا رأى الذباب قد اطمأن و غفل عنه دب دبيبا دقيقا حتى يكون منه بحيث تناله وثبته ثم يثب عليه فيأخذه فإذا أخذه اشتمل عليه بجسمه كله مخافة أن ينجو منه فلا يزال قابضا عليه حتى يحس بأنه قد ضعف و استرخى ثم يقبل عليه فيفترسه و يحيى بذلک منه فأما العنكبوت فإنه ينسج ذلک النسج فيتخذه شركا و مصيدة للذباب ثم يكمن فى جوفه فإذا نشب فيه الذباب أحال عليه يلدغه ساعة بعد ساعة فيعيش بذلک منه

فذلک يحكى صيد الكلاب و الفهود و هذا يحكى صيد الإشراک و الحبائل فانظر إلى هذه الدويبة الضعيفة كيف جعل فى طبعها ما لا يبلغه الإنسان إلا بالحيلة و استعمال الآلات فيها فلا تزدرى بالشىء إذا كانت العبرة فيه واضحة كالذرة و النملة و ما أشبه ذلک فإن المعنى النفيس قد يمثل بالشىء الحقير فلا يضع منه ذلک كما لا يضع من الدينار و هو من ذهب أن يوزن بمثقال من حديد

جسم الطائر و خلقته

تأمل يا مفضل جسم الطائر و خلقته فإنه حين قدر أن يكون طائرا فى الجو خفف جسمه و أدمج خلقه و اقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين و من الأصابع الخمس على أربع و من منفذين للزبل و البول على واحد يجمعهما ثم خلق ذا جؤجؤ محدد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه كما جعلت السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء و تنفذ فيه و جعل فى جناحيه و ذنبه ريشات طوال متان لينهض بها

للطيران و كسا كله الريش ليتداخله الهواء فيقله و لما قدر أن يكون طعمه الحب و اللحم يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقة الإنسان و خلق له منقار صلب جاسى يتناول به طعمه فلا ينسحج من لقط الحب و لا يتقصف من نهش اللحم و لما عدم الأسنان و صار يزدرد الحب صحيحا و اللحم غريضا أعين بفضل حرارة فى الجوف تطحن له الطعم طحنا يستغنى به عن المضغ و اعتبر ذلک بأن عجم العنب و غيره يخرج من أجواف

الإنس صحيحا و يطحن فى أجواف الطير لا يرى له أثر ثم جعل مما يبيض بيضا و لا يلد ولادة لكيلا يثقل عن الطيران فإنه لو كانت الفراخ فى جوفه تمكث حتى تستحكم لأثقلته و عاقته عن النهوض و الطيران فجعل كل شىء من خلقه مشاكلا للأمر الذى قدر أن يكون عليه ثم صار الطائر السائح فى هذا الجو يقعد على بيضه فيحضنه أسبوعا و بعضها أسبوعين و بعضها ثلاثة أسابيع حتى يخرج الفرخ من البيضة ثم يقبل عليه فيزقه الريح لتتسح حوصلته للغذاء ثم يربيه و يغذيه بما يعيش به فمن كلفه أن يلقط الطعم و الحب يستخرجه بعد

توحيدالمفضل ص : ١١٥

أن يستقر فى حوصلته و يغذو به فراخه و لأى معنى يحتمل هذه المشقة و ليس بذى روية و لا تفكر و لا يأمل فى فراخه ما يؤمل الإنسان فى ولده من العز و الرفد و بقاء الذكر فهذا من فعله يشهد أنه معطوف على فراخه لعله لا يعرفها و لا يفكر فيها و هى دوام النسل و بقاؤه لطفا من الله تعالى ذكره

الدجاجة و تهيجها لحضن البيض و التفريخ

انظر إلى الدجاجة كيف تهيج لحضن البيض و التفريخ و ليس لها بيض مجتمع و لا وكر موطأ بل تنبعث و تنتفخ و تقوى و تمتنع من الطعم حتى يجمع لها البيض فتحضنه و تفرخ فلم كان ذلک منها إلا لإقامة النسل و من أخذها بإقامة النسل و لا روية لها و لا تفكير لو لا أنها مجبولة على ذلک

خلق البيضة و التدبير فى ذلک

اعتبر بخلق البيضة و ما فيها من ألمح الأصفر الخاثر و الماء

توحيدالمفضل ص : ١١٦

الأبيض الرقيق فبعضه ينشو منه الفرخ و بعضه ليغتذى به إلى أن تنقاب عنه البيضة و ما فى ذلک من التدبير فإنه لو كان نشوء الفرخ فى تلک القشرة المستحفظة التى لا مساغ لشىء إليها جعل معه فى جوفها من الغذاء ما يكتفى به إلى وقت خروجه منها كمن يحبس فى حبس حصين لا يوصل إلى من فيه فيجعل معه من القوت ما يكتفى به إلى وقت خروجه منه

حوصلة الطائر

فكر يا مفضل فى حوصلة الطائر و ما قدر له فإن مسلک الطعم إلى القانصة ضيق لا

ينفذ فيه الطعام إلا قليلا قليلا فلو كان الطائر لا يلقط حبة ثانية حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال عليه و متى كان يستوفى طعمه فإنما يختلسه اختلاسا لشدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليوعى فيها ما أدرک من الطعم بسرعة ثم تنفذه إلى القانصة على مهل و فى الحوصلة أيضا خلة أخرى فإن من الطائر ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده للطعم من قرب أسهل عليه

توحيدالمفضل ص : ١١٧

اختلاف ألوان الطير و علة ذلک

قال المفضل فقلت إن قوما من المعطلة يزعمون أن اختلاف الألوان و الأشكال فى الطير إنما يكون من قبل امتزاج الأخلاط و اختلاف مقاديرها المرج و الإهمال قال يا مفضل هذا الوشى الذى تراه فى الطواويس و الدراج و التدارج على استواء و مقابلة كنحو ما يخط بالأقلام كيف يأتى به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف و لو كان بالإهمال لعدم الاستواء و لكان مختلفا

ريش الطائر و وصفه

تأمل ريش الطير كيف هو فإنک تراه منسوجا كنسج الثوب من سلوک دقاق قد ألف بعضه إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط و الشعرة إلى الشعرة ثم ترى ذلک النسج إذا مددته ينفتح قليلا و لا ينشق لتداخله الريح فيقل الطائر إذا طار و ترى فى وسط الريشة عمودا غليظا متينا قد نسج عليه الذى هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته و هو القصبة التى

توحيدالمفضل ص : ١١٨

فى وسط الريشة و هو مع ذلک أجوف ليخف على الطائر و لا يعوقه عن الطيران

الطائر الطويل الساقين و التدبير فى ذلک

هل رأيت يا مفضل هذا الطائر الطويل الساقين و عرفت ما له من المنفعة فى طول ساقيه فإنه أكثر ذلک فى ضحضاح من الماء فتراه بساقين طويلين كأنه ربيئة فوق مرقب و هو يتأمل ما يدب فى الماء فإذا رأى شيئا مما يتقوت به خطا خطوات رقيقا حتى يتناوله و لو كان قصير الساقين و كان يخطو نحو الصيد ليأخذه يصيب بطنه الماء فيثور و يذعر منه فيفرق عنه فخلق له ذلک العمودان ليدرک بهما حاجته و لا يفسد عليه مطلبه تأمل ضروب التدبير فى خلق الطائر فإنک تجد كل طائر طويل الساقين طويل

العنق و ذلک لیتمکن من تناول طعمه من الأرض و لو کان طویل الساقین قصیر العنق لما استطاع أن یتناول شیئا من الأرض

توحیدالمفضل ص : ۱۱۹

و ربما أعین مع العنق بطول المناقیر لیزداد الأمر علیه سهولة و إمکانا أ فلا تری أنک لا تفتش شیئا من الخلقة إلا وجدته علی غایة الصواب و الحکمة

العصافیر و طلبها للأکل

انظر إلی العصافیر کیف تطلب أکلها بالنهار فهی لا تفقده و لا تجده مجموعا معدا بل تناله بالحرکة و الطلب و کذلک الخلق کله فسبحان من قدر الرزق کیف فرقه فلم یجعل مما لا یقدر علیه إذ جعل بالخلق حاجة إلیه و لم یجعل مبذولا ینال بالهوینا إذ کان لا صلاح فی ذلک فإنه لو کان یوجد مجموعا معدا کانت البهائم تنقلب علیه و لا تنقلع عنه حتی تبشم فتهلک و کان الناس أیضا یصیرون بالفراغ إلی غایة الأشر و البطر حتی یکثر الفساد و تظهر الفواحش

معاش البوم و الهام و الخفاش

أ علمت ما طعم هذه الأصناف من الطیر التی لا تخرج إلا باللیل کمثل البوم و الهام و الخفاش

توحیدالمفضل ص : ۱۲۰

قلت لا یا مولای قال إن معاشها من ضروب تنتشر فی الجو من البعوض و الفراش و أشباه الجراد و الیعاسیب و ذلک أن هذه الضروب مبثوثه فی الجو لا یخلو منها موضع و اعتبر ذلک بأنک إذا وضعت سراجا باللیل فی سطح أو عرصة دار اجتمع علیه من هذه الضروب شیء کثیر فمن أین یأتی ذلک کله إلا من القرب فإن قال قائل إنه یأتی من الصحاری و البراری قیل له کیف یوافی تلک الساعة من موضع بعید و کیف یبصر من ذلک البعد سراجا فی دار محفوفة بالدور فیقصد إلیه مع أن هذه عیانا تتهافت علی السراج من قرب فیدل ذلک علی أنها منتشرة فی کل موضع من الجو فهذه الأصناف من الطیر تلتمسها إذا خرجت فتتقوت بها فانظر کیف وجه الرزق لهذه الطیور التی لا تخرج إلا باللیل من هذه الضروب المنتشرة فی الجو و اعرف ذلک المعنی فی خلق هذه الضروب المنتشرة التی عسی أن یظن ظان أنها فضل لا معنی له

خلقة الخفاش

خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير و ذوات الأربع هو إلى ذوات الأربع أقرب و ذلک أنه ذو أذنين ناشزتين و أسنان و وبر

توحيدالمفضل ص : ١٢١

و هو يلد ولادا و يرضع و يبول و يمشى إذا مشى على أربع و كل هذا خلاف صفة الطير ثم هو أيضا مما يخرج بالليل و يتقوت بما يسرى فى الجو من الفراش و ما أشبهه و قد قال قائلون إنه لا طعم للخفاش و إن غذاءه من النسيم وحده و ذلک يفسد و يبطل من جهتين أحدهما خروج الثفل و البول منه فإن هذا لا يكون من غير طعم و الأخرى أنه ذو أسنان و لو كان لا يطعم شيئا لم يكن للأسنان فيه معنى و ليس فى الخلقة شىء لا معنى له و أما المآرب فيه فمعروفة حتى أن زبله يدخل فى بعض الأعمال و من أعظم الأرب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه و تصرفها فيما شاء كيف شاء لضرب من المصلحة

حيلة الطائر أبو نمرة بالحسكة و منفعتها

فأما الطائر الصغير الذى يقال له ابن نمرة فقد عشش فى بعض الأوقات فى بعض الشجر فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه فاغرة فاها تبغيه لتبتلعه فبينما هو يتقلب و يضطرب فى طلب حيلة منها إذ وجد حسكة فحملها فألقاها فى فم الحية فلم تزل الحية تلتوى و تتقلب

توحيدالمفضل ص : ١٢٢

حتى ماتت أ فرأيت لو لم أخبرک بذلک كان يخطر ببالک أو ببال غيرک أنه يكون من حسكة مثل هذه المنفعة أو يكون من طائر صغير أو كبير مثل هذه الحيلة اعتبر بهذا و كثير من الأشياء يكون فيها منافع لا تعرف إلا بحادث يحدث أو خبر يسمع به

النحل عسله و بيوته

انظر إلى النحل و احتشاده فى صنعة العسل و تهيئة البيوت المسدسة و ما ترى فى ذلک من دقائق الفطنة فإنک إذا تأملت العمل رأيته عجيبا لطيفا و إذا رأيت المعمول وجدته عظيما شريفا موقعه من الناس و إذا رجعت إلى الفاعل ألفيته غبيا جاهلا بنفسه فضلا عما سوى ذلک ففى هذا أوضح الدلالة على أن الصواب و الحكمة فى هذه الصنعة ليس للنحل بل هى للذى طبعه عليها و سخره فيها لمصلحة الناس

توحيدالمفضل ص : ١٢٣

الجراد و بلاؤه

انظر إلى هذا الجراد ما أضعفه و أقواه فإنک إذا تأملت خلقه رأيته كأضعف الأشياء و إن دلفت عساكره نحو بلد من بلدان لم يستطع أحد أن يحميه منه أ لا ترى أن ملكا من ملوک الأرض لو جمع خيله و رجله ليحمى بلاده من الجراد لم يقدر على ذلک أ فليس من الدلائل على قدرة الخالق أن يبعث أضعف خلقه إلى أقوى خلقه فلا يستطيع دفعه

كثرة الجراد

انظر إليه كيف ينساب على وجه الأرض مثل السيل فيغشى السهل و الجبل و البدو و الحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته فلو كان هذا مما يصنع بالأيدى متى كان تجتمع منه هذه الكثرة و فى كم سنة كان يرتفع فأستدل بذلک على القدرة التى لا يؤدها شىء و لا يكثر عليها

وصف السمک

تأمل خلق السمک و مشاكلته للأمر الذى قدر أن يكون عليه فإنه خلق غير ذى قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشى إذ كان مسكنه الماء و خلق غير ذى رية لأنه لا يستطيع أن يتنفس و هو منغمس فى اللجة

و جعلت له مكان القوائم أجنحة شداد يضرب بها فى جانبيه كما يضرب الملاح بالمجاذيف من جانبى السفينة و كسا جسمه قشورا متانا متداخلة كتداخل الدروع و الجواشن لتقيه من الآفات فأعين بفضل حس فى الشم لأن بصره ضعيف و الماء يحجبه فصار يشم الطعم من البعد البعيد فينتجعه فيتبعه و إلا فكيف يعلم به و بموضعه و اعلم أن من فيه إلى صماخه منافذ فهو يعب الماء بفيه و يرسله من صماخيه فيتروح إلى ذلک كما يتروح غيره من الحيوان إلى تنسم هذا النسيم

كثرة نسل السمک و علة ذلک

فكر الآن فى كثرة نسله و ما خص به من ذلک فإنک ترى فى جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة و العلة فى ذلک أن يتسع لما يغتذى به من أصناف الحيوان فإن أكثرها يأكل السمک حتى أن السباع أيضا فى حافات الآجام عاكفة على الماء أيضا كى ترصد السمک فإذا مر بها خطفته فلما كانت السباع تأكل السمک

و الطير يأكل السمک و الناس يأكلون السمک و السمک يأكل السمک كان من التدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة

سعة حكمة الخالق و قصر علم المخلوقين

فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق و قصر علم المخلوقين فانظر إلى ما فى البحار من ضروب السمک و دواب الماء و الأصداف و الأصناف التى لا تحصى و لا تعرف منافعها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث مثل القرمز فإنه لما عرف الناس صبغه بأن كلبة تجول على شاطئ البحر فوجدت شيئا من الصنف الذى يسمى الحلزون فأكلته فاختضب خطمها بدمه فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغا و أشباه هذا مما يقف الناس عليه حالا بعد حال و زمانا بعد زمان

توحيدالمفضل ص : ١٢٦

قال المفضل و حان وقت الزوال فقام مولاى ع إلى الصلاة و قال بكر إلى غدا إن شاء الله تعالى فانصرفت و قد تضاعفت سرورى بما عرفنيه مبتهجا بما منحنيه حامدا لله على ما آتانيه فبت ليلتى مسرورا مبتهجا

المجلس الثالث

فلما كان اليوم الثالث بكرت إلى مولاى فاستؤذن لى فدخلت فأذن لى بالجلوس فجلست فقال ع الحمد لله الذى اصطفانا و لم يصطف علينا اصطفانا بعلمه

توحيدالمفضل ص : ١٢٧

و أيدنا بحلمه من شذ عنا فالنار مأواه و من تفيأ بظل دوحتنا فالجنة مثواه قد شرحت لک يا مفضل خلق الإنسان و ما دبر به و تنقله فى أحواله و ما فيه من الاعتبار و شرحت لک أمر الحيوان و أنا أبتدئ الآن بذكر السماء و الشمس و القمر و النجوم و الفلک و الليل و النهار و الحر و البرد و الرياح و الجواهر الأربعة الأرض و الماء و الهواء و النار و المطر و الصخر و الجبال و الطين و الحجارة و النخل و الشجر و ما فى ذلک من الأدلة و العبر

لون السماء و ما فيه من صواب التدبير

فكر فى لون السماء و ما فيه من صواب التدبير فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة و تقوية للبصر حتى أن من صفات الأطباء لمن أصابه شيء أضر ببصره إدمان النظر إلى الخضرة و ما قرب منها إلى السواد و قد وصف الحذاق منهم لمن كل بصره الاطلاع فى

إجانة خضراء مملوءة ماء فانظر كيف جعل الله جل و تعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد ليمسک الأبصار المتقلبة عليه فلا ينكى فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذى أدركه الناس بالفكر و الروية و التجارب يوجد مفروغا

توحيدالمفضل ص : ١٢٨

منه فى الخلقة حكمة بالغة ليعتبر بها المعتبرون و يفكر فيها الملحدون قاتلهم الله أنى يؤفكون

طلوع الشمس و غروبها و المنافع فى ذلک

فكر يا مفضل فى طلوع الشمس و غروبها لإقامة دولتى النهار و الليل فلو لا طلوعها لبطل أمر العالم كله فلم يكن الناس يسعون فى معايشهم و يتصرفون فى أمورهم و الدنيا مظلمة عليهم و لم يكونوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور و روحه و الأرب فى طلوعها ظاهر مستغنى بظهوره عن الإطناب فى ذكره و الزيادة فى شرحه بل تأمل المنفعة فى غروبها فلو لا غروبها لم يكن للناس هدوء و لا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء و الراحة لسكون أبدانهم و جموم حواسهم و انبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام و تنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل و مطاولته على ما يعظم نكايته فى أبدانهم فإن كثيرا من الناس لو لا جثوم هذا الليل بظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء و لا قرار حرصا على الكسب و الجمع و الادخار ثم كانت الأرض تستحمى بدوام الشمس بضيائها و يحمى كل ما عليها من حيوان و نبات فقدرها

توحيدالمفضل ص : ١٢٩

الله بحكمته و تدبيره تطلع وقتا و تغرب وقتا بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم ثم يغيب عنهم مثل ذلک ليهدءوا و يقروا فصار النور و الظلمة مع تضادهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم و قوامه

التدبير و المصلحة فى الفصول الأربعة من السنة

ثم فكر بعد هذا فى ارتفاع الشمس و انحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة و ما فى ذلک من التدبير و المصلحة ففى الشتاء تعود الحرارة فى الشجر و النبات فيتولد فيهما مواد الثمار و يتكثف الهواء فينشأ منه السحاب و المطر و تشتد أبدان الحيوان و تقوى و فى الربيع تتحرک و تظهر المواد المتولدة فى الشتاء فيطلع النبات و تنور

الأشجار و يهيج الحيوان للسفاد و فى الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار و تتحلل فضول الأبدان و يجف وجه الأرض فتهيأ للبناء و الأعمال و فى الخريف يصفو الهواء و ترتفع الأمراض و تصح الأبدان و يمتد الليل فيمكن فيه بعض الأعمال لطوله و يطيب الهواء فيه إلى مصالح أخرى لو تقصيت لذكرها لطال فيها الكلام

توحيدالمفضل ص : ١٣٠

معرفة الأزمنة و الفصول الأربعة عن طريق حركة الشمس

فكر الآن فى تنقل الشمس فى البروج الاثنى عشر لإقامة دور السنة و ما فى ذلک من التدبير فهو الدور الذى تصح به الأزمنة الأربعة من السنة الشتاء و الربيع و الصيف و الخريف تستوفيها على التمام و فى هذا المقدار من دوران الشمس تدرک الغلات و الثمار و تنتهى إلى غاياتهم ثم تعود فيستأنف النشو و النمو أ لا ترى أن السنة مقدار مسير الشمس من الحمل إلى الحمل فبالسنة و أخواتها يكال الزمان من لدن خلق الله تعالى العالم إلى كل وقت و عصر من غابر الأيام و بها يحسب الناس الأعمار و الأوقات الموقتة للديون و الإجارات و المعاملات و غير ذلک من أمورهم و بمسير الشمس تكمل السنة و يقوم حساب الزمان على الصحة انظر إلى شروقها على العالم كيف دبر أن يكون فإنها لو كانت تبزغ فى موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها و منفعتها إلى كثير من الجهات لأن الجبال و الجدران كانت تحجبها عنها فجعلت تطلع أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب ثم لا

توحيدالمفضل ص : ١٣١

تزال تدور و تغشى جهة بعد جهة حتى تنتهى إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها فى أول النهار فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة منها و الأرب التى قدرت له و لو تخلفت مقدار عام أو بعض عام كيف كان يكون حالهم بل كيف كان يكون لهم مع ذلک بقاء أ فلا ترى كيف كان يكون للناس هذه الأمور الجليلة التى لم يكن عندهم فيها حيلة فصارت تجرى على مجاريها لا تفتل و لا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم و ما فيه بقاؤه

الاستدلال بالقمر فى معرفة الشهور

استدل بالقمر ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة فى معرفة الشهور و لا يقوم عليه حساب السنة لأن دوره لا يستوفى الأزمنة الأربعة و نشو الثمار و تصرمها و لذلک

صارت شهور القمر و سنوه تتخلف عن شهور الشمس و سنيها و صار الشهر من شهور القمر ينتقل فيكون مرة بالشتاء و مرة بالصيف

ضوء القمر و ما فيه من المنافع

فكر فى إنارته فى ظلمة الليل و الأرب فى ذلک فإنه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان و برد الهواء على النبات لم يكن صلاح فى أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شىء من العمل لأنه ربما

احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم فى بعض الأعمال فى النهار و لشدة الحر و إفراطه فيعمل فى ضوء القمر أعمالا شتى كحرث الأرض و ضرب اللبن و قطع الخشب و ما أشبه ذلک فجعل ضوء القمر معونة للناس على معايشهم إذا احتاجوا إلى ذلک و أنسا للسائرين و جعل طلوعه فى بعض الليل دون بعض و نقص مع ذلک عن نور الشمس و ضيائها لكيلا ينبسط الناس فى العمل انبساطهم بالنهار و يمتنعوا من الهدوء و القرار فيهلكهم ذلک و فى تصرف القمر خاصة فى مهله و محاقه و زيادته و نقصانه و كسوفه من التنبيه على قدرة الله تعالى خالفه المصرف له هذا التصريف لصلاح العالم ما يعتبر به المعتبرون

النجوم و اختلاف مسيرها و السبب فى أن بعضها راتبة و الأخرى منتقلة

فكر يا مفضل فى النجوم و اختلاف مسيرها فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلک و لا تسير إلا مجتمعة و بعضها مطلقة تنتقل فى البروج و تفترق فى مسيرها فكل واحد منها يسير سيرين مختلفين أحدهما عام مع الفلک نحو المغرب و الآخر خاص لنفسه نحو المشرق كالنملة التى تدور على الرحى فالرحى تدور ذات اليمين و النملة تدور ذات الشمال

و النملة فى ذلک تتحرک حركتين مختلفين إحداهما بنفسها فتتوجه أمامها و الأخرى مستكرهة مع الرحى تجذبها إلى خلفها فاسأل الزاعمين أن النجوم صارت على ما هى عليه بالإهمال من غير عمد و لا صانع لها ما منعها أن تكون كلها راتبة أو تكون كلها منتقلة فإن الإهمال معنى واحد فكيف صار يأتى بحركتين مختلفتين على وزن و تقدير ففى هذا بيان أن مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد و تدبير و حكمة و تقدير و

ليس بإهمال كما يزعم المعطلة فإن قال قائل و لم صار بعض النجوم راتبا و بعضها منتقلا قلنا إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التى يستدل بها من تنقل المنتقلة و مسيرها فى كل برج من البروج كما يستدل بها على أشياء مما يحدث فى العالم بتنقل الشمس و النجوم فى منازلها و لو كانت

توحيدالمفضل ص : ١٣٤

كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف و لا رسم يوقف عليه لأنه إنما يوقف عليه بمسير المنتقلة منها بتنقلها فى البروج الراتبة كما يستدل على سير السائر على الأرض بالمنازل التى يجتاز عليها أو لو كان تنقلها بحال واحد لاختلط نظامها و بطلت المآرب فيها و لساغ القائل يقول إن كينونتها على حال واحدة توجب عليها الإهمال من الجهة التى وصفنا ففى اختلاف سيرها و تصرفها و ما فى ذلک من المآرب و المصلحة أبين دليل على العمد و التدبير فيها

فوائد بعض النجوم

فكر فى هذه النجوم التى تظهر فى بعض السنة و تحتجب فى بعضها كمثل الثريا و الجوزاء و الشعريين و سهيل فإنها لو كانت

توحيدالمفضل ص : ١٣٥

بأسرها تظهر فى وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حياله دلالات يعرفها الناس و يهتدون بها لبعض أمورهم كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثور و الجوزاء إذا طلعت و احتجابها إذا احتجبت فصار ظهور كل واحد و احتجابه فى وقت غير الوقت الآخر لينتفع الناس بما يدل عليه كل واحد منها على حدته و ما جعلت الثريا و أشباهها تظهر حينا و تحتجب حينا إلا لضرب من المصلحة و كذلک جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة فإنها بمنزلة الأعلام التى يهتدى بها الناس فى البر و البحر للطرق المجهولة و كذلک إنها لا تغيب و لا تتوارى فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث شاءوا و صار الأمران جميعا على اختلافهما موجهين نحو الأرب و المصلحة و فيهما مآرب أخرى علامات و دلالات على أوقات كثيرة من الأعمال كالزراعة و الغراس و السفر فى البر و البحر و أشياء مما يحدث فى الأزمنة من الأمطار و الرياح و الحر و البرد و بها يهتدى السائرون فى ظلمة الليل لقطع القفار الموحشة و اللجج الهائلة مع ما فى ترددها فى كبد السماء مقبلة و مدبرة و مشرقة

و مغربة من العبر فإنها تسير أسرع السير و أحثه أ رأيت لو كانت الشمس و القمر و النجوم بالقرب منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هى عليه أ لم تكن تستخطف الأبصار بوهجها و شعاعها كالذى يحدث أحيانا من البروق إذا توالت و اضطرمت فى الجو و كذلک أيضا لو أن أناسا كانوا فى قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دورانا حثيثا لحارت أبصارهم حتى يخروا لوجوههم فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها فى البعد البعيد لكيلا تضر فى الأبصار و تنكأ فيها و بأسرع السرعة لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة فى مسيرها و جعل فيها جزء يسيرا من الضوء ليسد مسد الأضواء إذا لم يكن قمر و يمكن فيه الحركة إذا حدثت ضرورة كما قد يحدث الحادث على المرء فيحتاج إلى التجافى فى جوف الليل فإن لم يكن شىء من الضوء يهتدى به لم يستطع أن يبرح مكانه فتأمل اللطف و الحكمة فى هذا التقدير حين جعل للظلمة دولة و مدة لحاجة إليها و جعل خلالها شىء من الضوء للمآرب التى وصفنا

الشمس و القمر و النجوم و البروج تدل على الخالق

فكر فى هذا الفلک بشمسه و قمره و نجومه و بروجه تدور على العالم هذا الدوران الدائم بهذا التقدير و الوزن لما فى اختلاف الليل و النهار

و هذه الأزمان الأربعة المتوالية من التنبيه على الأرض و ما عليها من أصناف الحيوان و النبات من ضروب المصلحة كالذى بينت و شخصت لک آنفا و هل يخفى على ذى لب أن هذا تقدير مقدر و صواب و حكمة من مقدر حكيم فإن قال قائل إن هذا شىء اتفق أن يكون هكذا فما منعه أن يقول مثل هذا فى دولاب يراه يدور و يسقى حديقة فيها شجر و نبات فيرى كل شىء من آلاته مقدرا بعضه يلقى بعضا على ما فيه صلاح تلک الحديقة و ما فيها و بم كان يثبت هذا القول لو قاله و ما ترى الناس كانوا قائلين له لو سمعوه منه أ فينكر أن يقول فى دولاب خشب مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الأرض أنه كان بلا صانع و مقدر و يقدر أن يقول فى هذا الدولاب الأعظم المخلوق بحكمة تقصر عنها أذهان البشر لصلاح جميع الأرض و ما عليها أنه شىء اتفق أن يكون بلا صنعة و لا تقدير لو اعتل هذا الفلک كما تعتل الآلات التى تتخذ للصناعات و غيرها أى شىء كان عند الناس من الحيلة فى إصلاحه

مقادير الليل و النهار

فكر يا مفضل فى مقادير النهار و الليل كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق فصار منتهى كل واحد منهما إذا امتد إلى

توحيدالمفضل ص : ١٣٨

خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلک أ فرأيت لو كان النهار يكون مقداره مائة ساعة أو مائتى ساعة أ لم يكن فى ذلک بوار كل ما فى الأرض من حيوان و نبات أما الحيوان فكان لا يهدأ و لا يقر طول هذه المدة و لا البهائم كانت تمسک عن الرعى لو دام لها ضوء النهار و لا الإنسان كان يفتر عن العمل و الحركة و كان ذلک ينهكها أجمع و يؤديها إلى التلف و أما النبات فكان يطول عليه حر النهار و وهج الشمس حتى يجف و يحترق كذلک الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة و التصرف فى طلب المعاش حتى تموت جوعا و تخمد الحرارة الطبيعية عن النبات حتى يعفن و يفسد كالذى تراه يحدث على النبات إذا كان فى موضع لا تطلع عليه الشمس

الحر و البرد و فوائدهما

اعتبر بهذا الحر و البرد كيف يتعاوران العالم و يتصرفان هذا التصرف فى الزيادة و النقصان و الاعتدال لإقامة هذه الأزمنة الأربعة

توحيدالمفضل ص : ١٣٩

من السنة و ما فيهما من المصالح ثم هما بعد دباغ الأبدان التى عليها بقاؤها و فيهما صلاحها فإنه لو لا الحر و البرد و تداولهما الأبدان لفسدت و أخوت و انتكثت فكر فى دخول أحدهما على الآخر بهذا التدريج و الترسل فإنک ترى أحدهما ينقص شيئا بعد شىء و الآخر يزيد مثل ذلک حتى ينتهى كل واحد منهما منتهاه فى الزيادة و النقصان و لو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجأة لأضر ذلک بالأبدان و أسقمها كما أن أحدكم لو خرج من حمام حار إلى موضع البرودة لضره ذلک و أسقم بدنه فلم يجعل الله عز و جل هذا الترسل فى الحر و البرد إلا للسلامة من ضرر المفاجأة و لم جرى الأمر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجأة لو لا التدبير فى ذلک فإن زعم زاعم أن هذا الترسل فى دخول الحر و البرد إنما يكون لإبطاء مسير الشمس فى ارتفاعها و انحطاطها سئل عن العلة فى إبطاء مسير الشمس فى ارتفاعها و انحطاطها فإن اعتل فى الإبطاء ببعد ما بين المشرقين سئل عن العلة فى ذلک فلا تزال هذه المسألة ترقى معه إلى حيث رقى من هذا

القول حتى استقر على العمد و التدبير لو لا الحر لما كانت الثمار

توحيدالمفضل ص : ۱۴۰

الجاسية المرة تنضج فتلين و تعذب حتى يتفكه بها رطبة و يابسة و لو لا البرد لما كان الزرع يفرخ هكذا و يريع الريع الكثير الذى يتسع للقوت و ما يرد فى الأرض للبذر أ فلا ترى ما فى الحر و البرد من عظيم الغناء و المنفعة و كلاهما مع غنائه و المنفعة فيه يؤلم الأبدان و يمضها و فى ذلک عبرة لمن فكر و دلالة على أنه من تدبير الحكيم فى مصلحة العالم و ما فيه

الريح و ما فيها

و أنبهک يا مفضل على الريح و ما فيها أ لست ترى ركودها إذا ركدت كيف يحدث الكرب الذى يكاد أن يأتى على النفوس و يمرض الأصحاء و ينهک المرضى و يفسد الثمار و يعفن البقول و يعقب الوباء فى الأبدان و الآفة فى الغلات ففى هذا بيان أن هبوب الريح من تدبير الحكيم فى صلاح الخلق

توحيدالمفضل ص : ۱۴۱

الهواء و الأصوات

و أنبئک عن الهواء بخلة أخرى فإن الصوت أثر يؤثره اصطكاک الأجسام فى الهواء و الهواء يؤديه إلى المسامع و الناس يتكلمون فى حوائجهم و معاملاتهم طول نهارهم و بعض ليلهم فلو كان أثر هذا الكلام يبقى فى الهواء كما يبقى الكتاب فى القرطاس لامتلأ العالم منه فكان يكربهم و يفدحهم و كانوا يحتاجون فى تجديده و الاستبدال به إلى أكثر مما يحتاج إليه فى تجديد القراطيس لأن ما يلفظ من الكلام أكثر مما يكتب فجعل الخلاق الحكيم جل قدسه هذا الهواء قرطاسا خفيا يحمل الكلام ريثما يبلغ العالم حاجتهم ثم يمحى فيعود جديدا نقيا و يحمل ما حمل أبدا بلا انقطاع و حسبک بهذا النسيم المسمى هواء عبرة و ما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان و الممسک لها من داخل بما يستنشق منه من خارج بما يباشر من روحه و فيه تطرد هذه الأصوات فيؤدى البعد البعيد و هو الحامل لهذه الأرواح ينقلها من موضع إلى موضع

توحيدالمفضل ص : ۱۴۲

أ لا ترى كيف تأتيک الرائحة من حيث تهب الريح فكذلک الصوت و هو القابل لهذا الحر و البرد اللذين يتعاقبان على العالم لصلاحه و منه هذه الريح الهابة فالريح تروح

عن الأجسام و تزجى السحاب من موضع إلى موضع ليعم نفعه حتى يستكشف فيمطر و تفضه حتى يستخف فيتفشى و تلقح الشجر و تسير السفن و ترخى الأطعمة و تبرد الماء و تشب النار و تجفف الأشياء الندية و بالجملة إنها تحيى كل ما فى الأرض فلو لا الريح لذوى النبات و لمات الحيوان و حمت الأشياء و فسدت

هيئة الأرض

فكر يا مفضل فيما خلق الله عز و جل عليه هذه الجواهر الأربعة ليتسع ما يحتاج إليه منها فمن ذلک سعة هذه الأرض و امتدادها فلو لا ذلک كيف كانت تتسع لمساكن الناس و مزارعهم و مراعيهم و منابت أخشابهم و أحطابهم و العقاقير العظيمة و المعادن الجسيم غناؤها و لعل من

توحيدالمفضل ص : ۱۴۳

ينكر هذه الفلوات الخاوية و القفار الموحشة فيقول ما المنفعة فيها فهى مأوى هذه الوحوش و محالها و مراعيها ثم فيها بعد تنفس و مضطرب للناس إذا احتاجوا إلى الاستبدال بأوطانهم فكم بيداء و كم فدفد حالت قصورا و جنانا بانتقال الناس إليها و حلولهم فيها و لو لا سعة الأرض و فسحتها لكان الناس كمن هو فى حصار ضيق لا يجد مندوحة عن وطنه إذا أحزنه أمر يضطره إلى الانتقال عنه ثم فكر فى خلق هذه الأرض على ما هى عليه حين خلقت راتبة راكنة فتكون موطنا مستقرا للأشياء فيتمكن الناس من السعى عليها فى مآربهم و الجلوس عليها لراحتهم و النوم لهدوئهم و الإتقان لأعمالهم فإنها لو كانت رجراجة منكفئة لم يكونوا يستطيعون أن يتقنوا البناء و النجارة و الصناعة و ما أشبه ذلک بل كانوا لا يتهنون بالعيش و الأرض ترتج من تحتهم و اعتبر ذلک بما يصيب الناس حين الزلازل على قلة

توحيدالمفضل ص : ۱۴۴

مكثها حتى يصيروا إلى ترک منازلهم و الهرب عنها فإن قال قائل فلم صارت هذه الأرض تزلزل قيل له إن الزلزلة و ما أشبهها موعظة و ترهيب يرهب بها الناس ليرعوا و ينزعوا عن المعاصى و كذلک ما ينزل بهم من البلاء فى أبدانهم و أموالهم يجرى فى التدبير على ما فيه صلاحهم و استقامتهم و يدخر لهم إن صلحوا من الثواب و العوض فى الآخرة ما لا يعدله شىء من أمور الدنيا و ربما عجل ذلک فى الدنيا إذا كان ذلک فى الدنيا صلاحا للعامة و الخاصة ثم إن الأرض فى طباعها الذى طبعها الله عليه باردة

يابسة و كذلک الحجارة و إنما الفرق بينها و بين الحجارة فضل يبس فى الحجارة أ فرأيت لو أن اليبس أفرط على الأرض قليلا حتى تكون حجرا صلدا أ كانت تنبت هذا النبات الذى به حياة الحيوان و كان يمكن بها حرث أو بناء أ فلا ترى كيف نقصت من يبس الحجارة و جعلت على ما هى عليه من اللين و الرخاوة لتتهيأ للاعتماد

فوائد الماء و السبب فى كثرته

و من تدبير الحكيم جل و علا فى خلقة الأرض أن مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب فلم جعل الله عز و جل كذلک إلا لتنحدر المياه

توحيدالمفضل ص : ۱۴۵

على وجه الأرض فتسقيها و ترويها ثم تفيض آخر ذلک إلى البحر فكما يرفع أحد جانبى السطح و يخفض الآخر لينحدر الماء عنه و لا يقوم عليه كذلک جعل مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب لهذه العلة بعينها و لو لا ذلک لبقى الماء متحيرا على وجه الأرض فكان يمنع الناس من أعمالها و يقطع الطرق و المسالک ثم الماء لو لا كثرته و تدفقه فى العيون و الأودية و الأنهار لضاق عما يحتاج إليه الناس لشربهم و شرب أنعامهم و مواشيهم و سقى زروعهم و أشجارهم و أصناف غلاتهم و شرب ما يرده من الوحوش و الطير و السباع و تتقلب فيه الحيتان و دواب الماء و فيه منافع أخر أنت بها عارف و عن عظيم موقعها غافل فإنه سوى الأمر الجليل المعروف من عظيم غنائه فى إحياء جميع ما على الأرض من الحيوان و النبات يمزج الأشربة فتلذ و تطيب لشاربها و به تنظف الأبدان و الأمتعة من الدرن الذى يغشاها و به يبل التراب فيصلح للأعمال و به

توحيدالمفضل ص : ۱۴۶

يكف عادية النار إذا اضطرمت و أشرف الناس على المكروه و به يستحم المتعب الكال فيجد الراحة من أوصابه إلى أشباه هذا من المآرب التى تعرف عظم موقعها فى وقت الحاجة إليها فإن شككت فى منفعة هذا الماء الكثير المتراكم فى البحار و قلت ما الأرب فيه فعلم أنه مكتنف و مضطرب ما لا يحصى من أصناف السمک و دواب البحر و معدن اللؤلؤ و الياقوت و العنبر و أصناف شتى تستخرج من البحر و فى سواحله منابت العود اليلنجوج و ضروب من الطيب و العقاقير ثم هو بعد مركب للناس و محمل لهذه التجارات التى تجلب من البلدان البعيدة كمثل ما يجلب من الصين إلى العراق و من العراق إلى الصين فإن هذه التجارات لو لم يكن لها محمل إلا على الظهر لبارت و

بقيت فى بلدانها و أيدى أهلها لأن أجر حملها يجاوز أثمانها فلا يتعرض أحد لحملها و كان يجتمع فى ذلک أمران أحدهما فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها و الآخر انقطاع معاش من يحملها و يتعيش بفضلها

فوائد الهواء و السبب فى كثرته

و هكذا الهواء لو لا كثرته و سعته لاختنق هذا الأنام من الدخان

توحيدالمفضل ص : ۱۴۷

و البخار الذى يتحير فيه و يعجز عما يحول إلى السحاب و أولا أولا فقد تقدم من صفته ما فيه كفاية

منافع النار و جعلها كالمخزونة فى الأجسام

و النار أيضا كذلک فإنها لو كانت مبثوثة كالنسيم و الماء كانت تحرق العالم و ما فيه و لما لم يكن بد من ظهورها فى الأحايين لغنائها فى كثير من المصالح جعلت كالمخزونة فى الأجسام فتلتمس عند الحاجة إليها و تمسک بالمادة و الحطب ما احتيج إلى بقائها لئلا تخبو فلا هى تمسک بالمادة و الحطب فتعظم المئونة فى ذلک و لا هى تظهر مبثوثة فتحرق كل ما هى فيه بل هى على تهيئة و تقدير اجتمع فيها الاستمتاع بمنافعها و السلامة من ضررها ثم فيها خلة أخرى و هى أنها مما خص بها الإنسان دون جميع الحيوان لما له فيها من المصلحة فإنه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الضرر فى معاشه فأما البهائم فلا تستعمل النار و لا تستمع بها و لما قدر الله عز و جل أن يكون هذا هكذا خلق للإنسان كفا و أصابع مهيئة لقدح النار و استعمالها و لم يعط البهائم مثل ذلک لكنها أعينت بالصبر على الجفاء و الخلل فى المعاش لكيلا ينالها فى فقد النار ما ينال الإنسان عند فقدها و أنبئک من منافع النار على خلقة صغيرة عظيم موقعها و هى هذا المصباح الذى يتخذه الناس فيقضون به حوائجهم ما شاءوا فى ليلهم و لو لا هذه الخلة لكان الناس تصرف أعمارهم بمنزلة من فى القبور فمن كان

توحيدالمفضل ص : ۱۴۸

يستطيع أن يكتب أو يحفظ أو ينسج فى ظلمة الليل و كيف كان حال من عرض له وجع فى وقت من أوقات الليل فاحتاج إلى أن يعالج ضمادا أو سفوفا أو شيئا يستشفى به فأما منافعها فى نضج الأطعمة و دفاء الأبدان و تجفيف أشياء و تحليل أشياء و أشباه ذلک فأكثر من أن تحصى و أظهر من أن تخفى

الصحو و المطر و تعاقبهما على العالم و فوائد ذلک

فکر یا مفضل فی الصحو و المطر کیف یتعاقبان علی هذا العالم لما فیه صلاحه و لو دام واحد منهما علیه کان فی ذلک فساده أ لا تری أن الأمطار إذا توالت عفنت البقول و الخضر و استرخت أبدان الحیوان و حصر الهواء فأحدث ضروبا من الأمراض و فسدت الطرق و المسالک و أن الصحو إذا دام جفت الأرض و احترق النبات و غیض ماء العیون و الأودیة فأضر ذلک بالناس و غلب الیبس علی الهواء فأحدث ضروبا أخری من الأمراض فإذا تعاقبا علی العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء و دفع کل واحد منهما عادیة الآخر فصلحت الأشیاء و استقامت فإن قال قائل و لم لا یکون فی شیء من ذلک مضرة البتة قیل له لیمض ذلک الإنسان و یؤلمه بعض الألم فیرعوی عن المعاصی فکما أن الإنسان إذا سقم بدنه احتاج إلی الأدویة المرة البشعة لیقوم طباعه و یصلح ما فسد

توحیدالمفضل ص : ۱۴۹

منه کذلک إذا طغی و اشتد احتاج إلی ما یمضه و یؤلمه لیرعوی و یقصر عن مساویه و یثبته علی ما فیه حظه و رشده و لو أن ملکا من الملوک قسم فی أهل مملکته قناطیرا من ذهب و فضة أ لم یکن سیعظم عندهم و یذهب له به الصوت فأین هذا من مطره رواء یعم به البلاد و یزید فی الغلات أکثر من قناطیر الذهب و الفضة فی أقالیم الأرض کلها أ فلا تری المطرة الواحدة ما أکبر قدرها و أعظم النعمة علی الناس فیها و هم عنها ساهون و ربما عاقت عن أحدهم حاجة لا قدر لها فیتذمر و یسخط إیثارا للخسیس قدره علی العظیم نفعه جمیلا محمودا لعاقبته و قلة معرفته لعظیم الغناء و المنفعة فیها

مصالح نزول المطر علی الأرض و أثر التدبیر فیه

تأمل نزوله علی الأرض و التدبیر فی ذلک فإنه جعل ینحدر علیها من علو لیغشی ما غلظ و ارتفع منها فیرویه و لو کان إنما یأتیها من بعض نواحیها لما علا المواضع المشرفة منها و یقل ما یزرع فی الأرض أ لا تری أن الذی یزرع سیحا أقل من ذلک فالأمطار هی التی تطبق الأرض و ربما تزرع هذه البراری الواسعة و سفوح الجبال و ذراها فتغل

توحیدالمفضل ص : ۱۵۰

الغلة الکثیرة و بها یسقط عن الناس فی کثیر من البلدان مئونة سیاق الماء من موضع إلی موضع و ما یجری فی ذلک بینهم من التشاجر و التظالم حتی یستأثر بالماء ذو العز و القوة و یحرمه الضعفاء ثم إنه حین قدر أن ینحدر علی الأرض انحدارا جعل ذلک

قطرا شبيها بالرش ليغور فى قعر الأرض فيرويها و لو كان يسكبه انسكابا كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها ثم كان يحطم الزروع القائمة إذا اندفق عليها فصار ينزل نزولا رقيقا فينبت الحب المزروع و يحيى الأرض و الزرع القائم و فى نزوله أيضا مصالح أخرى فإنه يلين الأبدان و يجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلک و يغسل ما يسقط على الشجر و الزرع من الداء المسمى باليرقان إلى أشباه هذا من المنافع فإن قال قائل أ و ليس قد يكون منه فى بعض السنين الضرر العظيم الكثير لشدة ما يقع منه أو برد يكون فيه تحطم الغلات و بخوره يحدثها فى الهواء فيولد كثيرا من الأمراض فى الأبدان و الآفات فى الغلات قيل بلى قد يكون ذلک الفرط لما فيه من صلاح الإنسان و كفه عن ركوب المعاصى و التمادى فيها فيكون المنفعة فيما يصلح له من دينه أرجح مما عسى أن يرزأ فى ماله

توحيدالمفضل ص : ١٥١

منافع الجبال

انظر يا مفضل إلى هذه الجبال المركومة من الطين و الحجارة التى يحسبها الغافلون فضلا لا حاجة إليها و المنافع فيها كثيرة فمن ذلک أن تسقط عليها الثلوج فتبقى فى قلالها لمن يحتاج إليه و يذوب ما ذاب منه فتجرى منه العيون الغزيرة التى تجتمع منها الأنهار العظام و ينبت فيها ضروب من النبات و العقاقير التى لا ينبت مثلها فى السهل و يكون فيها كهوف و معاقل للوحوش من السباع العادية و يتخذ منها الحصون و القلاع المنيعة للتحرز من الأعداء و ينحت منها الحجارة للبناء و الأرحاء و يوجد فيها معادن لضرب من الجواهر و فيها خلال أخر لا يعرفها إلا المقدر لها فى سابق علمه

أنواع المعادن و استفادة الإنسان منها

فكر يا مفضل فى هذه المعادن و ما يخرج منها من الجواهر المختلفة مثل الجص و الكلس و الجبسين و الزرنيخ

توحيدالمفضل ص : ١٥٢

و المرتک و التوتياء و الزئبق و النحاس و الرصاص و الفضة و الذهب و الزبرجد و الياقوت و الزمرد و ضروب الحجارة و كذلک ما يخرج منها من القار و المويا و الكبريت و النفط و غير ذلک مما يستعمله الناس فى مآربهم فهل يخفى على ذى عقل أن

هذه كلها ذخائر ذخرت للإنسان فی هذه الأرض ليستخرجها فيستعملها عند الحاجة إليها ثم قصرت حيلة الناس

توحيدالمفضل ص : ۱۵۳

عما حاولوا من صنعتها على حرصهم و اجتهادهم فی ذلک فإنهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم كان لا محالة سيظهر و يستفيض فی العالم حتى تكثر الفضة و الذهب و يسقطا عند الناس فلا تكون لهما قيمة و يبطل الانتفاع بهما فی الشراء و البيع و المعاملات و لا كان يجبی السلطان الأموال و لا يدخرهما أحد للأعقاب و قد أعطى الناس مع هذا صنعة الشبه من النحاس و الزجاج من الرمل و الفضة من الرصاص و الذهب من الفضة و أشباه ذلک مما لا مضرة فيه فانظر كيف أعطوا إرادتهم فی ما لا ضرر فيه و منعوا ذلک فيما كان ضارا لهم لو نالوه و من أوغل فی المعادن انتهى إلى واد عظيم يجرى منصلتا بماء غزير لا يدرک غوره و لا حيلة فی عبوره و من ورائه أمثال الجبال من الفضة تفكر الآن فی هذا من تدبير الخالق الحكيم فإنه أراد جل ثناؤه أن يرى العباد قدرته و سعة خزائنه ليعلموا أنه لو شاء أن يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل لكن لا صلاح لهم فی ذلک لأنه لو كان فيكون فيها كما ذكرنا سقوط هذا الجوهر عند الناس و قلة انتفاعهم به و اعتبر ذلک بأنه قد يظهر الشیء الظريف مما يحدثه الناس من الأوانی و الأمتعة فما دام عزيزا قليلا فهو نفيس جليل آخذ الثمن فإذا فشا و كثر فی أيدى الناس سقط عندهم و خست قيمته و نفاسة الأشياء من عزتها

توحيدالمفضل ص : ۱۵۴

النبات و ما فيه من ضروب المآرب

فكر يا مفضل فی هذا النبات و ما فيه من ضروب المآرب فالثمار للغذاء و الأتبان للعلف و الحطب للوقود و الخشب لكل شیء من أنواع النجارة و غيرها و اللحاء و الورق و الأصول و العروق و الصموغ لضروب من المنافع أ رأيت لو كنا نجد الثمار التی نغتذى بها مجموعة على وجه الأرض و لم تكن تنبت على هذه الأغصان الحاملة لها كم كان يدخل علينا من الخلل فی معاشنا و إن كان الغذاء موجودا فإن المنافع بالخشب و الحطب و الأتبان و سائر ما عددناه كثيرة عظيم قدرها جليل موقعها هذا مع ما فی النبات من التلذذ بحسن منظره و نضارته التی لا يعدلها شیء من مناظر العالم و ملاهيه

الريع فى النبات و سببه

فكر يا مفضل فى هذا الريع الذى جعل فى الزرع فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة و أكثر و أقل و كان يجوز للحبة أن تأتى بمثلها فلم صارت تريع هذا الريع إلا ليكون فى الغلة متسع لما يرد فى

توحيدالمفضل ص : ١٥٥

الأرض من البذر و ما يتقوت الزراع إلى إدراک زرعها المستقبل أ لا ترى أن الملک لو أراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل فى ذلک أن يعطى أهله ما يبذرونه فى أرضهم و ما يقوتهم إلى إدراک زرعهم فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم فى تدبير الحكيم فصار الزرع يريع هذا الريع ليفى بما يحتاج إليه للقوت و الزراعة و كذلک الشجر و النبت و النخل يريع الريع الكثير فإنک ترى الأصل الواحد حوله من فراخه أمرا عظيما فلم كان كذلک إلا ليكون فيه ما يقطعه الناس و يستعملونه فى مآربهم و ما يرد فيغرس فى الأرض و لو كان الأصل منه يبقى منفردا لا يفرخ و لا يريع لما أمكن أن يقطع منه شىء لعمل و لا لغرس ثم كان إن أصابته آفة انقطع أصله فلم يكن منه خلف بعض النباتات و كيف تصان

تأمل نبات هذه الحبوب من العدس و الماش و الباقلاء و ما أشبه ذلک فإنها تخرج فى أوعية مثل الخرائط لتصونها و تحجبها من الآفات إلى أن تشتد و تستحكم كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه

توحيدالمفضل ص : ١٥٦

و أما البر و ما أشبهه فإنه يخرج مدرجا فى قشور صلاب على رءوسها أمثال الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفر على الزراع فإن قال قائل أ و ليس قد ينال الطير من البر و الحبوب قيل له بلى على هذا قدر الأمر فيها لأن الطير خلق من خلق الله تعالى و قد جعل الله تبارک و تعالى له فى ما تخرج الأرض حظا و لكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لئلا يتمكن الطير منها كل التمكن فيعبث بها و يفسد الفساد الفاحش فإن الطير لو صادف الحب بارزا ليس عليه شىء يحول دونه لأكب عليه حتى ينسفه أصلا فكان يعرض من ذلک أن يبشم الطير فيموت و يخرج الزارع من زرعه صفرا فجعلت عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطائر منه شيئا يسيرا يتقوت به و يبقى أكثره للإنسان فإنه أولى به إذ كان هو الذى كدح فيه و شقى به و كان الذى يحتاج إليه أكثر

مما يحتاج إليه الطير

الحكمة فى خلق الشجر و أصناف النبات

تأمل الحكمة فى خلق الشجر و أصناف النبات فإنها لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان و لم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان و لا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة فى الأرض لتنزع منها الغذاء فتؤديه إلى الأغصان و ما عليها من الورق و الثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها و صارت أصولها التى هى كالأفواه ملتقمة للأرض

توحيدالمفضل ص : ١٥٧

لتنزع منها الغذاء كما ترضع أصناف الحيوان أمهاتها أ لم تر إلى عمد الفساطيط و الخيم كيف تمد بالأطناب من كل جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط و لا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة فى الأرض ممتدة إلى كل جانب لتمسكه و تقيمه و لو لا ذلک كيف كان يثبت هذا النخل الطوال و الدوح العظام فى الريح العاصف فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحيلة التى تستعملها الصناع فى ثبات الفساطيط و الخيم متقدمة فى خلق الشجر لئن خلق الشجر قبل صنعه الفساطيط و الخيم أ لا ترى عمدها و عيدانها من الشجر فالصناعة مأخوذة من الخلقة

خلق الورق و وصفه

تأمل يا مفضل خلق الورق فإنک ترى فى الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع فمنها غلاظ ممتدة فى طولها و عرضها و منها دقاق تتخلل تلک الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا معجما لو كان مما يصنع بالأيدى كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجره واحدة فى عام كامل و لاحتيج إلى آلات و حركة و علاج و كلام فصار يأتى منه فى أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال و السهل و بقاع الأرض كلها بلا حركة و لا كلام إلا بالإرادة النافذة فى كل شىء و الأمر المطاع و اعرف مع ذلک العلة فى تلک العروق

توحيدالمفضل ص : ١٥٨

الدقاق فإنها جعلت تتخلل الورقة بأسرها لتسقيها و توصل الماء إليها بمنزلة العروق المبثوثة فى البدن لتوصل الغذاء إلى كل جزء منه الغلاظ منها معنى آخر فإنها تمسک الورقة بصلابتها و متانتها لئلا تنهتک و تتمزق فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة فى طولها و عرضها لتتماسک فلا تضطرب

فالصناعة تحكى الخلقة و إن كانت لا تدركها على الحقيقة

العجم و النوى و العلة فى خلقه

فكر فى هذا العجم و النوى و العلة فيه فإنه جعل فى جوف الثمرة ليقوم مقام الغرس إن عاق دون الغرس عائق كما يحرز الشيء النفيس الذى تعظم الحاجة إليه فى مواضع أخر فإن حدث على الذى فى بعض المواضع منه حادث وجد فى موضع آخر ثم هو بعد يمسک بصلابته رخاوة الثمار و رقتها و لو لا ذلک لتشدخت و تفسخت و أسرع إليها الفساد و بعضه يؤكل و يستخرج دهنه فيستعمل منه ضروب من المصالح و قد تبين لک موضع الأرب فى العجم و النوى فكر الآن فى هذا الذى تجده فوق النواة من الرطبة و فوق العجم من العنبة فما العلة فيه و لما ذا يخرج فى هذه الهيئة و قد كان يمكن أن يكون مكان ذلک ما ليس فيه مأكل كمثل ما يكون فى السدر

توحيدالمفضل ص : ۱۵۹

و الدلب و ما أشبه ذلک فلم صار يخرج فوقه هذه المطاعم اللذيذة إلا ليستمتع بها الإنسان

موت الشجر و تجدد حياته و ما فى ذلک من ضروب التدبير

فكر فى ضروب من التدبير فى الشجر فإنک تراه يموت فى كل سنة موته فتحتبس الحرارة الغريزية فى عوده و يتولد فيه مواد الثمار ثم يحيى و ينتشر فيأتيک بهذه الفواكه نوعا بعد نوع كما تقدم إليک أنواع الأطبخة التى تعالج بالأيدى واحدا بعد واحد فترى الأغصان فى الشجر تتلقاک بثمارها حتى كأنها تناولكها عن يد و ترى الرياحين تتلقاک فى أفنانها كأنها تجئک بأنفسها فلمن هذا التقدير إلا لمقدر حكيم و ما العلة فيه إلا تفكيه الإنسان بهذه الثمار و الأنوار و العجب من أناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها

خلق الرمانة و أثر العمد فيه

و اعتبر بخلق الرمانة و ما ترى فيها من أثر العمد و التدبير فإنک ترى فيها كأمثال التلال من شحم مركوم فى نواحيها و حب مرصوف صفا كنحو ما ينضد بالأيدى و ترى الحب مقسوما أقساما و كل قسم

توحيدالمفضل ص : ۱۶۰

منها ملفوفا بلفائف من حجب منسوجة أعجب النسج و ألطفه و قشره يضم ذلک كله

فمن التدبير فی هذه الصنعة أنه لم یکن یجوز أن یکون حشو الرمانة من الحب وحده و ذلک أن الحب لا یمد بعضه بعضا فجعل ذلک الشحم خلال الحب لیمده بالغذاء أ لا تری أن أصول الحب مرکوزة فی ذلک الشحم ثم لف بتلک اللفائف لتضمه و تمسکه فلا یضطرب و غشی فوق ذلک بالقشرة المستحصفة لتصونه و تحصنه من الآفات فهذا قلیل من کثیر من وصف الرمانة و فیه أکثر من هذا لمن أراد الإطناب و التذرع فی الکلام و لکن فیما ذکرت لک کفایة فی الدلالة و الاعتبار

حمل الیقطین و ما فیه من التدبیر و الحکمة

فکر یا مفضل فی حمل الیقطین الضعیف مثل هذه الثمار الثقیلة من الدباء و القثاء و البطیخ و ما فی ذلک من التدبیر و الحکمة فإنه حین قدر أن یحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطا علی الأرض و لو کان ینتصب قائما کما ینتصب الزرع و الشجر لما استطاع أن یحمل مثل هذه الثمار الثقیلة و لتقصف قبل إدراکها و انتهائها إلی غایاتها فانظر کیف

توحیدالمفضل ص : ۱۶۱

صار یمتد علی وجه الأرض لیلقی علیها ثماره فتحملها عنه فتری الأصل من القرع و البطیخ مفترشا للأرض و ثماره مبثوثة علیها و حوالیه کأنه هرة ممتدة و قد اکتنفتها جراؤها لترضع منها

موافاة أصناف النبات فی الوقت المشاکل لها

و انظر کیف صارت الأصناف توافی فی الوقت المشاکل لها من حمارة الصیف و وقدة الحر فتلقاها النفوس بانشراح و تشوق إلیها و لو کانت توافی الشتاء لوافقت من الناس کراهة لها و اقشعرارا منها مع ما یکون فیها من المضرة للأبدان أ لا تری أنه ربما أدرک شیء من الخیار فی الشتاء فیمتنع الناس من أکله إلا الشره الذی لا یمتنع من أکل ما یضره و یسقم معدته

توحیدالمفضل ص : ۱۶۲

فی النخل و خلقة الجذع و الخشب و فوائد ذلک

فکر یا مفضل فی النخل فإنه لما صار فیه إناث تحتاج إلی التلقیح جعلت فیه ذکورة للقاح من غیر غراس فصار الذکر من النخل بمنزلة الذکر من الحیوان الذی یلقح الإناث لتحمل و هو لا یحمل تأمل خلقة الجذع کیف هو فإنک تراه کالمنسوج نسجا من

خيوط ممدودة كالسدى و أخرى معه معترضة كاللحمة كنحو ما ينسج بالأيدى و ذلک ليشتد و يصلب و لا يتقصف من حمل القنوات الثقيلة و هز الرياح العواصف إذا صار نخلة و ليتهيأ للسقوف و الجسور و غير ذلک مما يتخذ منه إذا صار جذعا و كذلک ترى الخشب مثل النسج فإنک ترى بعضه مداخلا بعضه بعضا طولا و عرضا كتداخل أجزاء اللحم و فيه مع ذلک متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فإنه لو كان مستحصفا كالحجارة لم يمكن أن يستعمل فى السقوف و غير ذلک مما يستعمل فيه الخشبة كالأبواب و الأسرة و التوابيت و ما أشبه ذلک و من جسيم المصالح فى الخشب أنه

توحيدالمفضل ص : ۱۶۳

يطفو على الماء فكل الناس يعرف هذا منه و ليس كلهم يعرف جلاله الأمر فيه فلو لا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن و الأظراف تحمل أمثال الجبال من الحمولة و أنى كان ينال الناس هذا الرفق و خفة المئونة فى حمل التجارات من بلد إلى بلد و كانت تعظم المئونة عليهم فى حملها حتى يلقى كثير مما يحتاج إليه فى بعض البلدان مفقودا أصلا أو عسر وجوده

العقاقير و اختصاص كل منها

فكر فى هذه العقاقير و ما خص بها كل واحد منها من العمل فى بعض الأدواء فهذا يغور فى المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج و هذا ينزف المرة السوداء مثل الأفتيمون و هذا

توحيدالمفضل ص : ۱۶۴

ينفى الرياح مثل السكبينج و هذا يحلل الأورام و أشباه هذا من أفعالها فمن جعل هذه القوى فيها إلا من خلقها للمنفعة و من فطن الناس لها إلا من جعل هذا فيها و متى كان يوقف على هذا منها بالعرض و الاتفاق كما قال القائلون و هب الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه و لطيف رويته و تجاربه فالبهائم كيف فطنت لها حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحة إن أصابته ببعض العقاقير فيبرأ و بعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم و أشباه هذا كثير و لعلک تشكک فى هذا النبات النابت فى الصحارى و البرارى حيث لا أنس و لا أنيس فتظن أنه فضل لا حاجة إليه و ليس كذلک بل هو طعم لهذه الوحوش و حبه علف للطير و عوده و أفنانه حطب فيستعمله الناس و فيه بعد أشياء تعالج بها الأبدان و أخرى تدبغ بها الجلود و أخرى تصبغ الأمتعة و

أشباه هذا من المصالح أ لست تعلم أن من أخس النبات و أحقره هذا البردى و ما أشبهها ففيها مع هذا من ضروب المنافع فقد يتخذ من البردى القراطيس التى يحتاج إليها الملوک و السوقة و الحصر التى يستعملها كل صنف من الناس و يعمل منه الغلف التى يوقى بها الأوانى و يجعل حشوا بين الظروف فى الأسفاط لكيلا تعيب و تنكسر و أشباه هذا من المنافع فاعتبر بما ترى من ضروب المآرب فى صغير الخلق و كبيره و بما له قيمة

توحيدالمفضل ص : ۱۶۵

و ما لا قيمة له و أخس من هذا و أحقره الزبل و العذرة التى اجتمعت فيها الخساسة و النجاسة معا و موقعها من الزروع و البقول و الخضر أجمع الموقع الذى لا يعدله شىء حتى أن كل شىء من الخضر لا يصلح و لا يزكو إلا بالزبل و السماد الذى يستقذره الناس و يكرهون الدنو منه و اعلم أنه ليس منزلة الشىء على حسب قيمته بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين و ربما كان الخسيس فى سوق المكتسب نفيسا فى سوق العلم فلا تستصغر العبرة فى الشىء لصغر قيمته فلو فطن طالبوا الكيمياء لما فى العذرة لاشتروها بأنفس الأثمان و غالوا بها قال المفضل و حان وقت الزوال فقام مولاى إلى الصلاة و قال بكر إلى غدا إن شاء الله تعالى فانصرفت و قد تضاعف سرورى بما عرفنيه مبتهجا بما آتانيه حامدا لله على ما منحنيه فبت ليلتى مسرورا

توحيدالمفضل ص : ۱۶۶

المجلس الرابع

قال المفضل فلما كان اليوم الرابع بكرت إلى مولاى فاستؤذن لى فأمرنى بالجلوس فجلست فقال ع منا التحميد و التسبيح و التعظيم و التقديس للاسم الأقدم و النور الأعظم العلى العلام ذى الجلال و الإكرام و منشئ الأنام و مفنى العوالم و الدهور و صاحب السر المستور و الغيب المحظور و الاسم المخزون و العلم المكنون و صلواته و بركاته على مبلغ وحيه و مؤدى رسالته الذى بعثه بشيرا و نذيرا و داعيا إلى الله بإذنه و سراجا منيرا ليهلک من هلک عن بينة و يحيا من حى عن بينة فعليه و على آله من بارئه الصلوات الطيبات و التحيات الزاكيات الناميات و عليه و عليهم السلام و الرحمة و البركات فى الماضين و الغابرين أبد الآبدين و دهر الداهرين و هم أهله و مستحقوه

الموت و الفناء و انتقاد الجهال و جواب ذلک

قد شرحت لک یا مفضل من الأدلة علی الخلق و الشواهد علی صواب التدبیر و العمد فی الإنسان و الحیوان و النبات و الشجر و غیر ذلک ما فیه عبرة لمن اعتبر و أنا أشرح لک الآن الآفات الحادثة فی بعض الأزمان التی اتخذها أناس من الجهال ذریعة إلی جحود الخلق و الخالق و العمد و التدبیر و ما أنکرت المعطلة و المنانیة من المکاره و المصائب و ما

توحیدالمفضل ص : ۱۶۷

أنکروه من الموت و الفناء و ما قاله أصحاب الطبائع و من زعم أن کون الأشیاء بالعرض و الاتفاق لیتسع ذلک القول فی الرد علیهم قاتلهم الله أنی یؤفکون

الآفات و نظر الجهال إلیها و الجواب علی ذلک

اتخذ أناس من الجهال هذه الآفات الحادثة فی بعض الأزمان کمثل الوباء و الیرقان و البرد و الجراد ذریعة إلی جحود الخالق و التدبیر و الخلق فیقال فی جواب ذلک أنه إن لم یکن خالق و مدبر فلم لا یکون ما هو أکثر من هذا و أفظع فمن ذلک أن تسقط السماء علی الأرض و تهوی الأرض فتذهب سفلا و تتخلف الشمس عن الطلوع أصلا و تجف الأنهار و العیون حتی لا یوجد ماء للشفه و ترکد الریح حتی تخم الأشیاء و تفسد و یفیض ماء البحر علی الأرض فیغرقها ثم هذه الآفات التی ذکرناها من الوباء و الجراد و ما أشبه ذلک ما بالها لا تدوم و تمتد حتی تجتاح کل ما فی العالم بل تحدث فی الأحایین ثم لا تلبث أن ترفع أ فلا تری أن العالم یصان و یحفظ من تلک الأحداث الجلیلة التی لو حدث علیه شیء منها کان فیه بواره و یلذع أحیانا بهذه الآفات الیسیرة لتأدیب الناس و تقویمهم ثم لا تدوم هذه الآفات بل تکشف

توحیدالمفضل ص : ۱۶۸

عنهم عند القنوط منهم فیکون وقوعها بهم موعظة و کشفها عنهم رحمة و قد أنکرت المنانیة من المکاره و المصائب التی تصیب الناس فکلاهما یقول إن کان للعالم خالق رءوف رحیم فلم تحدث فیه هذه الأمور المکروهة و القائل بهذا القول یذهب إلی أنه ینبغی أن یکون عیش الإنسان فی هذه الدنیا صافیا من کل کدر و لو کان هکذا کان الإنسان یخرج من الأشر و العتو إلی ما لا یصلح فی دین و لا دنیا کالذی تری کثیرا من المترفین و من نشأ فی الجدة و الأمن یخرجون إلیه حتی أن أحدهم ینسی أنه بشر و

أنه مربوب أو أن ضررا يمسه أو أن مكروها ينزل به أو أنه يجب عليه أن يرحم ضعيفا أو يواسى فقيرا أو يرثى لمبتلى أو يتحنن على ضعيف أو يتعطف على مكروب فإذا عضته المكاره و وجد مضضها اتعظ و أبصر كثيرا مما كان جهله و غفل عنه و رجع إلى كثير مما كان يجب عليه و المنكرون لهذه الأمور المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرة البشعة و يتسخطون من المنع من الأطعمة الضارة و يتكرهون الأدب و العمل و يحبون أن يتفرغوا للهو و البطالة و ينالوا كل مطعم و مشرب و لا يعرفون ما تؤديهم إليه البطالة من سوء النشو و العادة و ما تعقبهم الأطعمة اللذيذة الضارة من الأدواء و الأسقام و ما لهم فى الأدب من الصلاح و فى الأدوية من المنفعة و إن شاب ذلک بعض الكراهة

توحيدالمفضل ص : ١٦٩

فإن قالوا فلم لم يكن الإنسان معصوما من المساوئ حتى لا يحتاج إلى أن تلذعه هذه المكاره قيل إذا كان يكون غير محمود على حسنه يأتيها و لا مستحقا للثواب عليها فإن قالوا و ما كان يضره أن لا يكون محمودا على الحسنات مستحقا للثواب بعد أن يصير إلى غاية النعيم و اللذات قيل لهم اعرضوا على امرئ صحيح الجسم و العقل أن يجلس منعما و يكفى كلما يحتاج إليه بلا سعى و لا استحقاق فانظروا هل تقبل نفسه ذلک بل ستجدونه بالقليل مما يناله بالسعى و الحركة أشد اغتباطا و سرورا منه بالكثير مما يناله بغير الاستحقاق و كذلک نعيم الآخرة أيضا يكمل لأهله بأن ينالوه بالسعى فيه و الاستحقاق له فالنعمة على الإنسان فى هذا الباب مضاعفة فإن أعد له الثواب الجزيل على سعيه فى هذه الدنيا و جعل له السبيل إلى أن ينال ذلک بسعى و استحقاق فيكمل له السرور و الاغتباط بما يناله منه فإن قالوا أ و ليس قد يكون من الناس من يركن إلى ما نال من خير و إن كان لا يستحقه فما الحجة فى منع من رضى أن ينال نعيم الآخرة على هذه الجملة قيل لهم إن هذا باب لو صح للناس لخرجوا إلى غاية الكلب و الضراوة على الفواحش و انتهاک المحارم فمن كان يكف نفسه عن فاحشة أو يتحمل المشقة فى باب من أبواب البر لوثق بأنه

توحيدالمفضل ص : ١٧٠

صائر إلى النعيم لا محالة أو من كان يأمن على نفسه و أهله و ماله من الناس لو لم يخاف الحساب و العقاب فكان ضرر هذا الباب سينال الناس فى هذه الدنيا قبل الآخرة

فيكون فى ذلک تعطيل العدل و الحكمة معا و موضع للطعن على التدبير بخلاف الصواب و وضع الأمور فى غير مواضعها

لما ذا تصيب الآفات جميع الناس و ما الحجة فى ذلک

و قد يتعلق هؤلاء بالآفات التى تصيب الناس فتعم البر و الفاجر أو يبتلى بها البر و يسلم الفاجر منها فقالوا كيف يجوز هذا فى تدبير الحكيم و ما الحجة فيه فيقال لهم إن هذه الآفات و إن كانت تنال الصالح و الطالح جميعا فإن الله عز و جل جعل ذلک صلاحا للصنفين كليهما أما الصالحون فإن الذى يصيبهم من هذا يزدهم نعم ربهم عندهم فى سالف أيامهم فيحدوهم ذلک على الشكر و الصبر و أما الطالحون فإن مثل هذا إذا نالهم كسر شرتهم و ردعهم عن المعاصى و الفواحش و كذلک يجعل لمن سلم منهم من الصنفين صلاحا فى ذلک أما الأبرار فإنهم يغتبطون بما هم عليه من البر و الصلاح و يزدادون فيه رغبة و بصيرة و أما الفجار فإنهم يعرفون رأفة ربهم و تطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق فيحضهم ذلک على الرأفة بالناس و الصفح عمن أساء إليهم و لعل قائلا يقول إن هذه الآفات التى تصيب الناس فى أموالهم فما قولک فيما يبتلون به فى أبدانهم فيكون فيه تلفهم كمثل الحرق و الغرق و السيل و الخسف فيقال له إن الله جعل فى هذا أيضا صلاحا للصنفين جميعا أما الأبرار فلما لهم فى مفارقة هذه الدنيا من الراحة

من تكاليفها و النجاة من مكارهها و أما الفجار فلما لهم فى ذلک من تمحيص أوزارهم و حبسهم عن الازدياد منها و جملة القول إن الخالق تعالى ذكره بحكمته و قدرته قد يصرف هذه الأمور كلها إلى الخير و المنفعة فكما أنه إذا قطعت الريح شجره أو قطعت نخلة أخذها الصانع الرفيق و استعملها فى ضروب من المنافع فكذلک يفعل المدبر الحكيم فى الآفات التى تنزل بالناس فى أبدانهم و أموالهم فيصيرها جميعا إلى الخير و المنفعة فإن قال و لم تحدث على الناس قيل له لكيلا يركنوا إلى المعاصى من طول السلامة فيبالغ الفاجر فى ركوب المعاصى و يفتر الصالح عن الاجتهاد فى البر فإن هذين الأمرين جميعا يغلبان على الناس فى حال الخفض و الدعة و هذه الحوادث التى تحدث عليهم تردعهم و تنبههم على ما فيه رشدهم فلو خلوا منها لغلوا فى الطغيان و المعصية كما غلا الناس فى أول الزمان حتى وجب عليهم البوار بالطوفان و تطهير

الأرض منهم

الموت و الفناء و انتقاد الجهال و جواب ذلک

و مما ينتقده الجاحدون للعمد و التقدير الموت و الفناء فإنهم يذهبون إلى أنه ينبغى أن يكون الناس مخلدين فى هذه الدنيا مبرءين من هذه الآفات فينبغى أن يساق هذا الأمر إلى غايته فينظر ما محصوله أ فرأيت لو كان كل من دخل العالم و يدخله يبقون و لا يموت أحد منهم أ لم تكن الأرض تضيق بهم حتى تعوزهم المساكن و المزارع و المعايش فإنهم و الموت يفنيهم أولا فأولا يتنافسون فى المساكن

توحيدالمفضل ص : ١٧٢

و المزارع حتى تنشب بينهم فى ذلک الحروب و تسفک فيهم الدماء فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون و لا يموتون و كان يغلب عليهم الحرص و الشره و قساوة القلوب فلو وثقوا بأنهم لا يموتون لما قنع الواحد منهم بشىء يناله و لا أفرج لأحد عن شىء يسأله و لا سلا عن شىء مما يحدث عليه ثم كانوا يملون الحياة و كل شىء من أمور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره حتى يتمنى الموت و الراحة من الدنيا فإن قالوا إنه كان ينبغى أنه يرفع عنهم المكاره و الأوصاب حتى لا يتمنوا الموت و لا يشتاقوا إليه فقد وصفنا ما كان يخرجهم إليه من العتو و الأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدنيا و الدين و إن قالوا إنه كان ينبغى أن لا يتوالدوا كيلا تضيق عنهم المساكن و المعايش قيل لهم إذا كان يحرم أكثر هذا الخلق دخول العالم و الاستمتاع بنعم الله تعالى و مواهبه فى الدارين جميعا إذا لم يدخل العالم إلا قرن واحد لا يتوالدون و لا يتناسلون فإن قالوا إنه كان ينبغى أن يخلق فى ذلک القرن الواحد من الناس مثل ما خلق و يخلق إلى انقضاء العالم يقال لهم رجع الأمر إلى ما ذكرنا من ضيق المساكن و المعايش عنهم ثم لو كانوا لا يتوالدون و لا يتناسلون لذهب موضع الأنس بالقرابات و ذوى الأرحام و الانتصار بهم عند الشدائد و موضع تربية الأولاد و السرور بهم ففى هذا دليل على أن كلما تذهب إليه الأوهام سوى ما جرى به التدبير خطأ و سفه من الرأى و القول

توحيدالمفضل ص : ١٧٣

الطعن على التدبير من جهة أخرى و الجواب عليه

و لعل طاعنا يطعن على التدبير من جهة أخرى فيقول كيف يكون هاهنا تدبير و نحن

نرى الناس فى هذه الدنيا من عزيز فالقوى يظلم و يغصب و الضعيف يظلم و يسالم الخسف و الصالح فقير مبتلى و الفاسق معافى موسع عليه و من ركب فاحشة أو انتهک محرما لم يعاجل بالعقوبة فلو كان فى العالم تدبير لجرت الأمور على القياس القائم فكان الصالح هو المرزوق و الطالح هو المحروم و كان القوى يمنع من ظلم الضعيف و المنتهک للمحارم يعاجل بالعقوبة فيقال فى جواب ذلک إن هذا لو كان هكذا لذهب موضع الإحسان الذى فضل به الإنسان على غيره من الخلق و حمل النفس على البر و العمل الصالح احتسابا للثواب و ثقة بما وعد الله عنه و لصار الناس بمنزلة الدواب التى تساس بالعصا و العلف و يلمع لها بكل واحد منهما ساعة فساعة فتستقيم على ذلک و لم يكن أحد يعمل على يقين بثواب أو عقاب حتى كان هذا يخرجهم عن حد الإنسية إلى حد البهائم ثم لا يعرف ما غاب و لا يعمل إلا على الحاضر من نعيم الدنيا و كان يحدث من هذا أيضا أن يكون الصالح إنما يعمل للرزق و السعة فى هذه الدنيا و يكون الممتنع من الظلم و الفواحش إنما يكف عن ذلک لترقب عقوبة تنزل به من ساعته حتى تكون أفعال الناس كلها تجرى على الحاضر لا يشوبه شىء من اليقين بما عند الله و لا يستحقون ثواب الآخرة و النعيم الدائم فيها مع أن هذه الأمور التى ذكرها الطاعن من

الغنى و الفقر و العافية و البلاء ليست بجارية على خلاف قياسه بل قد تجرى على ذلک أحيانا و الأمر المفهوم فقد ترى كثيرا من الصالحين يرزقون المال لضروب من التدبير و كيلا يسبق إلى قلوب الناس أن الكفار هم المرزوقون و الأبرار هم المحرومون فيؤثرون الفسق على الصلاح و ترى كثيرا من الفساق يعاجلون بالعقوبة إذا تفاقم طغيانهم و عظم ضررهم على الناس و على أنفسهم كما عوجل فرعون بالغرق و بختنصر بالتيه و بلبيس بالقتل و إن أمهل بعض الأشرار بالعقوبة و أخر بعض الأخيار بالثواب إلى الدار الآخرة لأسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير فإن مثل هذا قد يكون من ملوک الأرض و لا يبطل تدبيرهم بل يكون تأخيرهم ما أخروه و تعجيلهم ما عجلوه داخلا فى صواب الرأى و التدبير و إذا كانت

الشواهد تشهد و قياسهم يوجب أن للأشياء خالقا حكيما قادرا فما يمنعه أن يدبر خلقه

فإنه لا يصلح فى قياسهم أن يكون الصانع يهمل صنعته إلا بإحدى ثلاث خلال إما عجز و إما جهل و إما شرارة و كل هذا محال فى صنعته عز و جل و تعالى ذكره و ذلک أن العاجز لا يستطيع أن يأتى بهذه الخلائق الجليلة العجيبة و الجاهل لا يهتدى لما فيها من الصواب و الحكمة و الشرير لا يتطاول لخلقها و إنشائها و إذا كان هذا هكذا وجب أن يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها لا محالة و إن كان لا يدرک كنه ذلک التدبير و مخارجه فإن كثيرا من تدبير الملوک لا تفهمه العامة و لا تعرف أسبابه لأنها لا تعرف دخيلة أمر الملوک و أسرارهم فإذا عرف سببه وجد قائما على الصواب و الشاهد المحنة و لو شككت فى بعض الأدوية و الأطعمة فيتبين لک من جهتين أو ثلاث أنه حار أو بارد أ لم تكن ستقضى عليه بذلک و تنفى الشک فيه عن نفسک فما بال هؤلاء الجهلة لا يقضون على العالم بالخلق و التدبير مع هذه الشواهد الكثيرة و أكثر منها ما لا يحصى كثرة و لو كان نصف العالم و ما فيه مشكلا صوابه لما كان من حزم الرأى و سمت الأدب أن يقضى على العالم بالإهمال لأنه كان فى النصف الآخر و ما يظهر فيه من الصواب و إتقان ما يردع الوهم عن التسرع إلى هذه القضية فكيف و كلما فيه إذا فتش وجد على غاية الصواب حتى لا يخطر بالبال شىء إلا وجد ما عليه الخلقة أصح و أصوب منه

توحيدالمفضل ص : ١٧۶

اسم هذا العالم بلسان اليونانية

و اعلم يا مفضل أن اسم هذا العالم بلسان اليونانية الجارى المعروف عندهم قوسموس و تفسيره الزينة و كذلک سمته الفلاسفة و من ادعى الحكمة أ فكانوا يسمونه بهذا الاسم إلا لما رأوا فيه من التقدير و النظام فلم يرضوا أن يسموه تقديرا و نظاما حتى سموه زينة ليخبروا أنه مع ما هو عليه من الصواب و الإتقان على غاية الحسن و البهاء

عمى مانى عن دلائل الحكمة و ادعاؤه علم الأسرار

أعجب يا مفضل من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطإ و هم يرون الطبيب يخطئ و يقضون على العالم بالإهمال و لا يرون شيئا منه مهملا بل أعجب من أخلاق من ادعى الحكمة حتى جهلوا مواضعها فى الخلق فأرسلوا ألسنتهم بالذم للخالق جل و علا بل العجب من المخذول مانى حين ادعى علم الأسرار و عمى عن دلائل الحكمة فى

الخلق حتى نسبه إلى الخطإ و نسب خالقه إلى الجهل تبارک الحکیم الکریم

انتقاد المعطلة فیما راموا أن یدرکوا بالحس ما لا یدرک بالعقل

و أعجب منهم جمیعا المعطلة الذین راموا أن یدرکوا بالحس ما لا یدرک بالعقل فلما أعوزهم ذلک خرجوا إلی الجحود و التکذیب فقالوا و لم لا یدرک بالعقل قیل لأنه فوق مرتبة العقل کما لا یدرک البصر ما هو

توحیدالمفضل ص : ۱۷۷

فوق مرتبته فإنک لو رأیت حجرا یرتفع فی الهواء علمت أن رامیا رمی به فلیس هذا العلم من قبل البصر بل من قبل العقل لأن العقل هو الذی یمیزه فیعلم أن الحجر لا یذهب علوا من تلقاء نفسه أ فلا تری کیف وقف البصر علی حده فلم یتجاوزه فکذلک یقف العقل علی حده من معرفة الخالق فلا یعدوه و لکن یعقله بعقل أقر أن فیه نفسا و لم یعاینها و لم یدرکها بحاسة من الحواس

معرفة العقل للخالق معرفة إقرار لا معرفة إحاطة

و علی حسب هذا أیضا نقول إن العقل یعرف الخالق من جهة توجب علیه الإقرار و لا یعرفه بما یوجب له الإحاطة بصفته فإن قالوا فکیف یکلف العبد الضعیف معرفته بالعقل اللطیف و لا یحیط به قیل لهم إنما کلف العباد من ذلک ما فی طاقتهم أن یبلغوه و هو أن یوقنوا به و یقفوا عند أمره و نهیه و لم یکلفوا الإحاطة بصفته کما أن الملک لا یکلف رعیته أن یعلموا أ طویل هو أم قصیر و أبیض هو أم أسمر و إنما یکلفهم الإذعان لسلطانه و الانتهاء إلی أمره أ لا تری أن رجلا لو أتی باب الملک فقال أعرض علی نفسک حتی أتقصی معرفتک و إلا لم أسمع لک کان قد أحل نفسه بالعقوبة فکذا القائل إنه لا یقر بالخالق سبحانه حتی یحیط بکنهه متعرضا لسخطه فإن قالوا أ و لیس قد نصفه فنقول هو العزیز الحکیم الجواد الکریم قیل لهم کل هذه صفات إقرار و لیست صفات إحاطة فإنا نعلم أنه حکیم و لا نعلم بکنه ذلک منه و کذلک

توحیدالمفضل ص : ۱۷۸

قدیر و جواد و سائر صفاته کما قد نری السماء فلا ندری ما جوهرها و نری البحر و لا ندری أین منتهاه بل فوق هذا المثال بما لا نهایة له و لأن الأمثال کلها تقصر عنه و لکنها تقود العقل إلی معرفته فإن قالوا و لم یختلف فیه قیل لهم لقصر الأوهام عن مدی عظمته و تعدیها أقدارها فی طلب معرفته و أنها تروم الإحاطة به و هی تعجز عن

ذلک و ما دونه

الشمس و اختلاف الفلاسفة فی وضعها و شکلها و مقدارها

فمن ذلک هذه الشمس التی تراها تطلع علی العالم و لا یوقف علی حقیقة أمرها و لذلک کثرت الأقاویل فیها و اختلفت الفلاسفة المذکورون فی وصفها فقال بعضهم هو فلک أجوف مملوء نارا له فم یجیش بهذا الوهج و الشعاع و قال آخرون هو سحابة و قال آخرون هو جسم زجاجی یقل نارية فی العالم و یرسل علیه شعاعها و قال آخرون هو صفو لطیف ینعقد ماء البحر و قال آخرون هو أجزاء کثیرة مجتمعة من النار و قال آخرون هو من جوهر خامس سوی الجواهر الأربعة ثم اختلفوا فی شکلها فقال بعضهم هی بمنزلة صفیحة عریضة و قال آخرون هی کالکرة المدحرجة و کذلک اختلفوا فی مقدارها فزعم بعضهم أنها مثل الأرض سواء و قال آخرون بل هی أقل من ذلک و قال آخرون بل هی أعظم من الجزیرة العظیمة و قال أصحاب الهندسة هی أضعاف الأرض مائة و سبعین مرة ففی اختلاف

توحیدالمفضل ص : ۱۷۹

هذه الأقاویل منهم فی الشمس دلیل علی أنهم لم یقفوا علی الحقیقة من أمرها فإذا کانت هذه الشمس التی یقع علیها البصر و یدرکها الحس قد عجزت العقول عن الوقوف علی حقیقتها فکیف ما لطف عن الحس و استتر عن الوهم فإن قالوا و لم استتر قیل لهم لم یستتر بحیلة یخلص إلیها کمن یحتجب من الناس بالأبواب و الستور و إنما معنی قولنا استتر أنه لطف عن مدی ما تبلغه الأوهام کما لطفت النفس و هی خلق من خلقه و ارتفعت عن إدراکها بالنظر فإن قالوا و لم لطف تعالی عن ذلک علوا کبیرا کان ذلک خطأ من القول لأنه لا یلیق بالذی هو خالق کل شیء إلا أن یکون مباینا لکل شیء متعالیا عن کل شیء سبحانه و تعالی

الحق الذی تطلب معرفته من الأشیاء أربعة أوجه و تفصیل ذلک

فإن قالوا کیف یعقل أن یکون مباینا لکل شیء متعالیا عن کل شیء قیل لهم الحق الذی تطلب معرفته من الأشیاء هو أربعة أوجه فأولها أن ینظر أ موجود هو أم لیس بموجود و الثانی أن یعرف ما هو فی ذاته و جوهرة و الثالث أن یعرف کیف هو و ما صفته و الرابع أن یعلم لما ذا هو و لأی علة فلیس من هذه الوجوه شیء یمکن للمخلوق أن یعرفه من الخالق حق معرفته غیر أنه موجود فقط فإذا قلنا و کیف و ما هو فممتنع علم

كنهه و كمال المعرفة به و أما لما ذا هو فساقط فى صفة الخالق لأنه جل ثناؤه علة كل شيء و ليس شيء بعلة له ثم ليس

توحيدالمفضل ص : ١٨٠

علم الإنسان بأنه موجود يوجب له أن يعلم ما هو و كيف هو كما أن علمه بوجود النفس لا يوجب أن يعلم ما هى و كيف هى و كذلک الأمور الروحانية اللطيفة فإن قالوا فأنتم الآن تصفون من قصور العلم عنه وصفا حتى كأنه غير معلوم قيل لهم هو كذلک من جهة إذا رام العقل معرفة كنهه و الإحاطة به و هو من جهة أخرى أقرب من كل قريب إذا استدل عليه بالدلائل الشافية فهو من جهة كالواضح لا يخفى على أحد و هو من جهة كالغامض لا يدركه أحد و كذلک العقل أيضا ظاهر بشواهده و مستور بذاته

أصحاب الطبائع و مناقشة أقوالهم

فأما أصحاب الطبائع فقالوا إن الطبيعة لا تفعل شيئا لغير معنى و لا تتجاوز عما فيه تمام الشيء فى طبيعته و زعموا أن الحكمة تشهد بذلک فقيل لهم فمن أعطى الطبيعة هذه الحكمة و الوقوف على حدود الأشياء بلا مجاوزة لها و هذا قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب فإن أوجبوا للطبيعة الحكمة و القدرة على مثل هذه الأفعال فقد أقروا بما أنكروا لأن هذه فى صفات الخالق و إن أنكروا أن يكون هذا للطبيعة فهذا وجه الخلق يهتف بأن الفعل للخالق الحكيم و قد كان من القدماء طائفة أنكروا العمد و التدبير فى الأشياء و زعموا أن كونها بالعرض و الاتفاق و كان مما احتجوا به هذه الآيات التى تكون على غير مجرى العرف و العادة كإنسان يولد ناقصا أو زائدا إصبعا أو يكون المولود مشوها مبدل الخلق

توحيدالمفضل ص : ١٨١

فجعلوا هذا دليلا على أن كون الأشياء ليس بعمد و تقدير بل بالعرض كيف ما اتفق أن يكون و قد كان أرسطاطاليس رد عليهم فقال إن الذى يكون بالعرض و الاتفاق إنما هو شيء يأتى فى الفرط مرة لأعراض تعرض للطبيعة فتزيلها عن سبيلها و ليس بمنزلة الأمور الطبيعية الجارية على شكل واحد جريا دائما متتابعا و أنت يا مفضل ترى أصناف الحيوان أن يجرى أكثر ذلک على مثال و منهاج واحد كالإنسان يولد و له يدان و رجلان و خمس أصابع كما عليه الجمهور من الناس فأما ما يولد على خلاف ذلک فإنه لعلة تكون فى الرحم أو فى المادة التى ينشأ منها الجنين كما يعرض فى الصناعات حين

يتعمد الصانع الصواب فى صنعته فيعوق دون ذلک عائق فى الأداة أو فى الآلة التى يعمل فيها الشيء فقد يحدث مثل ذلک فى أولاد الحيوان

توحيدالمفضل ص : ١٨٢

للأسباب التى وصفنا فيأتى الولد زائدا أو ناقصا أو مشوها و يسلم أكثرها فيأتى سويا لا علة فيه فكما أن الذى يحدث فى بعض أعمال الأعراض لعلة فيه لا يوجب عليها جميعا الإهمال و عدم الصانع كذلک ما يحدث على بعض الأفعال الطبيعية لعائق يدخل عليها لا يوجب أن يكون جميعها بالعرض و الاتفاق فقول من قال فى الأشياء إن كونها بالعرض و الاتفاق من قبيل أن شيئا منها يأتى على خلاف الطبيعة بعرض يعرض له خطأ و خطل فإن قالوا و لم صار مثل هذا يحدث فى الأشياء قيل لهم ليعلم أنه ليس كون الأشياء باضطرار من الطبيعة و لا يمكن أن يكون سواه كما قال القائلون بل هو تقدير و عمد من خالق حكيم إذ جعل للطبيعة تجرى أكثر ذلک على مجرى و منهاج معروف و تزول أحيانا عن ذلک لأعراض تعرض لها فيستدل بذلک على أنها مصرفة مدبرة فقيرة إلى إبداء الخالق و قدرته فى بلوغ غايتها و إتمام عملها تبارک الله أحسن الخالقين يا مفضل خذ ما آتيتک و احفظ ما منحتک و كن لربک من الشاكرين و لآلائه من الحامدين و لأوليائه من المطيعين فقد شرحت لک من الأدلة على الخلق و الشواهد على صواب التدبير و العمد قليلا من كثير و جزء من كل فتدبره و فكر فيه و اعتبر به فقلت بمعونتک يا مولاى أقر على ذلک و أبلغه إن شاء الله فوضع يده على صدرى فقال احفظ بمشيئة الله و لا تنس إن شاء الله فخررت مغشيا على فلما أفقت قال كيف ترى نفسک يا مفضل فقلت قد استغنيت بمعونة مولاى

توحيدالمفضل ص : ١٨٣

و تأييده عن الكتاب الذى كتبته و صار ذلک بين يدى كأنما أقرأه من كفى فلمولاى الحمد و الشكر كما هو أهله و مستحقه فقال يا مفضل فرغ قلبک و اجمع إليک ذهنک و عقلک و طمأنينتک فسألقى إليک من علم ملكوت السماوات و الأرض و ما خلق الله بينهما و فيهما من عجائب خلقه و أصناف الملائكة و صفوفهم و مقاماتهم و مراتبهم إلى سدرة المنتهى و سائر الخلق من الجن و الإنس إلى الأرض السابعة السفلى و ما تحت الثرى حتى يكون ما وعيته جزء من أجزاء انصرف إذا شئت مصاحبا مكلوء فأنت منا بالمكان الرفيع و موضعک من قلوب المؤمنين موضع الماء من الصدى و لا تسألن

عما وعدتک حتی أحدث لک منه ذکرا قال المفضل فانصرفت من عند مولای بما لم ینصرف أحد بمثله